

علي بك الكبير



أحمد شوقي

علي بك الكبير

أو دولة المماليك

تأليف

أمير الشعراء أحمد شوقي



علي بك الكبير

أمير الشعراء أحمد شوقي

رقم إيداع ٢٠١٢/١٥٣٥٢

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٤١٦ ٢٧٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ + ٢٠٢ فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ + ٢٠٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

٩

٦٣

١٠٣

تمهيد

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

تمهيد

- زمن الرواية: حوالي سنة ١٧٧٠ ميلادية.
- مكانها: الفسطاط والصالحية وعكا.
- أشخاصها:

- علي بك الكبير: حاكم مصر، ويُلقَّبُ بشيخ البلد.
- محمد بك أبو الذهب: مُتَبَنَّى علي بك والخارج عليه، ومن أمراء المماليك.
- مراد بك: من أتباع علي بك وأولاده.
- ضاهر العمر: صاحب حصن عكا وحليف علي بك.
- مصطفى اليسرجي: (الجلاب).
- أمال، شمس، زكية: إماء معروضات للبيع
- عشاق: شاب شركسي مع الجلاب.
- أم محمود: الماشطة والواسطة في بيع الجواري.
- رزق الله الوكيل: وكيل علي بك.
- بشير بك: من أصحاب علي بك.
- عثمان بك: من أصحاب محمد بك.
- قائد الأسطول الروسي في عكا.
- أمراء.
- جواسيس.
- قواد.
- جند.

علي بك الكبير

- فتيات.
- أغوات.
- خدم.

الفصل الأول

في قصر علي بك الكبير

(حجرة من القصر واسعة فخمة على الطراز الشرقي، مفروشة بنفيس الطنافس، قد نُثِرَتْ فيها الوسائد والصفوف وُزِينَتْ سقفها بثريات الزجاج الملون المشكل وركزت في زوايا أرضها الشمعدانات الكبيرة ...)
(جلس هناك في انتظار علي بك الكبير مصطفى اليسرجي (الجلاب) ومعه ثلاث فتيات شركسيات (آمال) و(شمس) و(زكية) وشاب شركسي اسمه عشاق من جنسهن وقرابتهن وأم محمود الماشطة)

زكية:

يا أمَّ محمود تلك دنيا
وهكذا فَلَتَكَ القُصورُ
وهكذا شمس في الليالي
تُنزل هالاتها البدورُ
قصرُ سماواته الثُّرَيَّا
وأرضه الوشي والحريُّ

أم محمود:

ونحنُ يا شمس نحن بؤسُ
بيوتنا الجِصُّ والحَصيرُ
نُنْقَلُ من حُفرةٍ لِاحِدٍ
تساوت الدورُ والقبورُ

علي بك الكبير

شمس:

يا أم محمود خبّريني أها هنا ينزلُ الأميرُ

أم محمود:

أجل

شمس:

ومن ذا وما يُسمّى؟

أم محمود:

سلطان مصر علي الكبير

شمس:

والطيبُ يا أمُّ لم تَشْمِي النَّدَّ والمسكُ والعبيرُ

مصطفى:

لا تعجبي هم ملوكُ مصرِ دنياهُمُ الطيبُ والبخورُ

زكية:

وما الأميرُ يا يسر جي ما له من العُمر

مصطفى:

قد جاوز الشبابَ إلَّا أنه كهلاً نضر

أم محمود الماشطة:

ما بلدُ العزِّ غيرِ مصرٍ كيف طَعَمْتُنَّ يا بناتُ

شمس:

طعامُ شاهٍ طعامُ عرس لم يَرو أمثالَه الرواةُ
ما القصرُ ما الفرشُ ما الأواني ما الأكلُ ما الشربُ ما الطهارةُ

مصطفى:

هذا هو المُلْكُ مُلْكُ مصر وهكذا الحظُّ والهباتُ
وأنتِ آمالُ؟

آمال:

خاَلياني ما تلك إلا خُرْعِلاتُ
القصرُ كوخِي على جبال جَلَّهَا الثلجُ والنباتُ
إذا عوى الذئبُ من مكانٍ أجابه الكلبُ والرعاةُ

زكية:

أجل حنَّنا للجبال الشيبِ وللشتاء القارس العصيبِ
وكلِّ راعٍ واقفٍ للذيبِ أمَّن خوفَ الحملِ الرعيبِ
تلمحه كالعلمِ المنصوبِ والوعلِ في الجبَّةِ والذهبِ
والدَّيْدُبَانِ في فمِ الدروبِ

مصطفى:

بخٍ بخٍ مرَحَى يا كَوْمَةَ الشحمِ

علي بك الكبير

يا جَزْرَ بُلُوْطٍ لکن من اللحم

أم محمود:

أعرفت يا جلاب أنك جئت بالحمل الثقيل
عن تلك كان لنا غنى ما تلك إلا سقط فيل

مصطفى:

يا أمَّ محمودَ اقصدي لكل سلعة ثمن
إن سرّاة الناس في مصرَ يحبون السمن
وهذه الكومة فيها سمن لكن حسن

(يسمع أذان العصر بصوت شجي من محراب في دار الإمارة فتلتفت شمس
بأم محمود وتقول):

شمس:

ما هذه الرنة في قبة القصر

زكية:

صوت من الجنة يهتف بالعصر

أم محمود:

ما زالت السنة والبر في مصر
يا رب أيدها بالعز والنصر

شمس (لعشاق):

قم غنِّ يا عشَّاق
وناجِ بالأشواق
أغنية المَعَّاز
أحبَّة القوقاز

عشاق (يغني):

كوخ وراء الجبال
فديته لا أبالي
مُكلَّسٌ بالجليد
بكل قصرٍ مَشِيد
ما مرَّ يوماً ببالي
إلا بللتُ خدودي

* * *

يا منزل القوقازِ
لمعتَ لمعةً بازي
عم من بعيد صباحاً
في الجوِّ سلَّ الجناحاً
سَلِّم على المَعَّازِ
إذا غداً أو راحاً

* * *

وقل له يا راعي
اسمع على البعد راعٍ
في الناي هات الأنينا
صوتاً من الغائبينا
هل أنت للعهد راعٍ
أم قد تركت الحنينا

(بعد صمت وإطراق من الجميع)

أم محمود (للبنات):

تعالين بنات الشر
كس الغيدَ تعالينَا

زكية:

ولمَّ؟ ماذا؟

أم محمود:

تَعَالَيْنَ تَزِدُّكَ يَدِي زِينًا
فلا أتركُ لا شعُرا ولا خدًا ولا عينًا

أم محمود (لشمس):

تعالِي أيها الشقرا وهاتي شعرك التبري
هَلُمَّيْ اقتربي مني وألقي الرأسَ في حجري
غَدًا يَاخُذُكَ الشاري وما تدرينَ من يَشري

أم محمود (لآمال):

تَعَالِي أيها السمرا فإن الخبرَ في السُمرِ
أشعرُ ذاك آمالُ أم الليلُ إذا يسري
قضاك الله للوالي أو الحاكمِ في مصرِ

آمال (في غضب):

دعيني مرأةَ السوءِ دعيني بومّةَ الشرِّ
قضاك الله للجوع وللسجنِ وللقبرِ

أم محمود (لمصطفى):

يا سيدي الخناس هذه ضَبْعُ فارجعُ بها لا تشرها ولا تبُعُ
إلا إذا ساومنا فيها سَبْعُ

آمال (إلى صاحبتيها):

قوما إليها

الفصل الأول

شمس:

وأنت؟

آمال:

لا، لا أحب الفضولا
عليّ ثوب جمال ما احتاج يوماً ذيولا

شمس:

ما الخطب؟ ممّ غضبتُ آمالُ؟

زكية:

ما بالها ساخطةٌ ما بالُ

أم محمود:

غبيّةٌ ما عرّفتُ ما المالُ

مصطفى (همساً لشمس):

شمسُ

شمس:

يَسْرَجِيُّ

مصطفى:

انظري
ميلي إليها وخذي
آمال ماذا غمها
فيما يسري همها

آمال:

بل الحقُّ معي وحدي
سوامٌ نحنُ أم نحنُ
وأنتنَّ الغبيَّات
نُفوسُ آدمياتُ

أم محمود (لزكية):

وأنت يا ضخمةُ يا بدينه
قومي إليَّ أقبلي للزينه
يا محملاً يخطرُ بالمدينه
رُزقت عمدة بلا قرينه
يطلب منا امرأة سمينه
ثروته في داره دفينه

مصطفى:

يا أمَّ محمودَ أرى
هائجةً صاحبة
آمالَ جدِّ مُغضِّبه
ثائرةً مُقطِّبه
نفسها المعذبه
في وجهها تكاد تبدو

(مصطفى لآمال):

آمال بنتي استريحي
لا تحملي همَّ شيء
وقللي التفكيرا
دعي لي التدبيرا
عساي أغنم ملكًا
أو أستفيد أميرا
فتحكمن بمصر
وتنزلين القصورا
مُلكُ الجمال كبيرٌ
زيديه مُلكًا كبيرًا

صوني جمالك هذا عن أن يعيش فقيرا

آمال:

يا أبي ما تريد بي
مَلَكَةٌ أو أميرة
حُلْمٌ ثم ينقضي
كيف تسمو إلى العلا
أنت تلهو وتلعب
أبهذا أَلَقَّبُ
وأمانِيَّ تكذبُ
ابنةً باعها الأبُّ

(ثم مستمرة):

أبي، تاجرٌ كما شئت
ولكن لا تَرُمْ ثمني
فبيعُ الجنس فاحشةً
أبي، شرفٌ على فقر
وكيف أردت فاحترفِ
ولا في هذه الغرَفِ
أليس كذلك اعترف
ولا فقر إلى الشرف

مصطفى (لنفسه):

يا مالُ ما فيك من سحرٍ ومن خطر
تاجرت بالجنس حتى صار محتقراً
ذهبتُ بالشركس الآساد أعرضهم
لولاك ما بعْتُ أطفالي، فما كبدي
لقد نزلت بنا عن رتبة البشر
عند الشعوب وما جنسي بمحتقر
عرض الرعاة صغارَ الشاءِ والبقر
من الحديد ولا قلبي من الحجر

(مصطفى يُقبل على آمال):

طفلةُ آمالُ أنت
ها هنا الدنيا ومُلْكُ
أنت ما تدريين شيئاً
لك في الدنيا تَهَيَّأ

آمال:

خُلِّ عنك المَلِكُ والقَصْدُ
إِنْ ما تَصْنَعُ بي قَدْ
ر ولا تَذْكَرُ عَلِيًّا
بَغْضِ الدُّنْيَا إِلَيَّا

(ثم لنفسها):

رَبِّ جَنَّبَنِي شَبَابَ ذَا البَلَدِ
لِي أُخَّ فِي أَرْضِ مِصْرَ بَاعِهِ
مَنْ جَنَاحِ الأبِّ وَالْأُمِّ سَنَدِ
أُمَّهُ التُّكُّلَ فَمَاتَتْ بِالْكَمْدِ
قَدْ جَرَّتْ شَيْعَنَهُ حَتَّى ابْتَعَدَ
وَأَبِي مِنْ غَضَبِ يَوْمِي بِيدِ
أَهُوَ فِي الخَيْلِ لَوَاءً أُمٌّ وَتَدُّ
أُمٌّ مِنَ الجُوعِ لِيُوسِفَ سَجَدُ
رَبِّ جَنَّبَنِي شَبَابَ ذَا البَلَدِ
لِي أُخَّ فِي أَرْضِ مِصْرَ بَاعِهِ
مَنْ جَنَاحِ الأبِّ وَالْأُمِّ سَنَدِ
أُمَّهُ التُّكُّلَ فَمَاتَتْ بِالْكَمْدِ
قَدْ جَرَّتْ شَيْعَنَهُ حَتَّى ابْتَعَدَ
وَأَبِي مِنْ غَضَبِ يَوْمِي بِيدِ
أَهُوَ فِي الخَيْلِ لَوَاءً أُمٌّ وَتَدُّ
أُمٌّ مِنَ الجُوعِ لِيُوسِفَ سَجَدُ

زكية:

وَأَيْنَ بَنُو السُّلْطَانِ؟ لَمْ لَا نَرَاهُمُ
يَرِفُ الشَّبَابُ الغُضَّ مِنْ طِيلِسانِهِ
أَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ يَغْتَدِي وَيُروحُ
وَيَنْفِخُ رِيحَانَ الصَّبَا وَيَفُوحُ

شمس:

فَلَا خَيْرَ فِي دَارٍ إِذَا لَمْ يَطْفِ بِهَا
وَلَا خَيْرَ فِي رَوْضٍ بَغِيرَ بَهَارَةٍ
نَسِيمَ شَبَابٍ أَوْ شِعَاعِ جَمالِ
وَلَا خَيْرَ فِي قَاعٍ بَغِيرَ غِزالِ

مصطفى:

أَجَلٌ لَهُ ابْنٌ

الفصل الأول

شمس:

ما اسمه؟

مصطفى:

محمد العالي النسب

شمس:

لعله أبو الذهب؟

زكية:

لله ما أحلى اللقب!

ففيه رنة الذهب

مصطفى:

متبنّى الأمير والمتبنّى
نعتوه لنا فقالوا أميرٌ
تغدق الألسن المديح عليه
مَلِكٌ سابقٌ إلى كلِّ فضلٍ
ن بهذي البلاد كالأبناء
أُرِيحِي من صفوة الأمراء
وتفيض الشفاه حسن الثناء
نابغ الغرس عبقرِيُّ البناء

(ثم مستمراً):

وأنت يا أم محمو د ما الذي تعلمينا؟

علي بك الكبير

أم محمود:

محمدٌ ليس برًّا ولا وفياً أميناً
بالأمس عَقَّ أباهُ فكان شرَّ البنينا
واليوم يشهر حرباً على الأمير زبونا
وأما أخوه

زكية:

كيف؟ من؟ هل له أخ؟

أم محمود:

أجل، وهو أيضاً لم يلد له أبوه

زكية:

إذن فعليُّ والد الناس كلهم وكل شباب الضفتين بنوه
وكيف الفتى يا أم محمود؟ ما اسمه؟

أم محمود:

غلام وضيءُ المفرقين جواد
رأيتَه مثلي تذكرن ساعة رأينا

شمس:

من؟ ما اسم الأمير؟

أم محمود:

مرادُ

(أم محمود لآمال)

هَناكَ آمالِ ابنتي هَناكَ

آمال:

ما ذاكِ يا أمِ اذكري ما ذاكِ؟

أم محمود:

الحظِ يا بنتاهِ قد أعطاكِ
عُشقتِ عشقًا سوفَ يروى في السَّيرِ
عشقٌ له في مصرَ والشرقَ حَظَرُ
وعاشقِ عالي السناءِ كالقمرِ

آمال:

يا أم محمود هُديت.. ما الخبرُ؟

أم محمود:

لقيتُ مرادًا أمس

آمال:

ماذا يهمني؟

أم محمود:

عجيب! ألا يعني النساء مُراد؟!
فتى عَلمٌ في مصر، في الشرق كله
نبييل كأبناء الملوك جواد
يُحِبُّ عَلِيًّا جَهْدَهُ وَيُحِبُّهُ
علي فبين السديين ودا
كأنني به نال الولاية وانتهت
إليه أمورٌ في غد وبلاد
يُحِبُّكَ يَا آمَالَ حُبًّا مُبَرِّحًا
على مثله ما انضمَّ قطُّ فؤاد

زكية:

عرفته

آمال:

ومن؟

زكية:

فَتَّي
ذَاكَ الْخَفِيفُ كَالْقَنَا
أَمَسَ إِلَى السُّوقِ حَضْرُ
ةِ وَالْوَضِيءُ كَالْقَمَرِ
أَتَى لَنَا أَمَسٌ فَمَا
اخْتَصَّ سَوَاكَ بِالنُّظْرِ

آمال:

عرفته ذاك الوَقَّاحُ
ذاكَ الَّذِي قَلَّبْنَا
في دعاية الهذر
أَمَسَ كَتَقْلِبِ الْحُصْرِ

شمس:

وكنت أنتِ قِبَلَةَ الـ
لحظ وموضع الفكرِ

أم محمود:

وأنت كنت وزكبي عة الحصير المحقر

آمال:

أوذاك الذي تقولين يهواني

أم محمود:

أجل وهو أرفع الناس قدراً
هسسي صه هس انظرا ها هو نا قد حضرا

(يدخل مراد بك)

مراد بك (عند الباب لنفسه):

ويح لي رب ما أرى أم محمود
هي في القصر كيف جاءت إليه
أتراها قد حازها لعللي
كيف هل بعد في فؤاد علي
رب ما لي أهابها كلما قمت
وأنا الذئب لم تسلط على قلبي
وود إلهي وهذه آمال
كيف وافاه مصطفى المحتال
جبر الجاه واحتواها المال
موضع يحتوي عليه الجمال
وما لي يرذني الإجلال
مهة ولم يساطر غزال

(ثم لأم محمود ومن معها):

سلام أم محمود سلام يا بنياتي

علي بك الكبير

أم محمود:

سلام لك مولاي

زكية:

وعلويُّ التحيات

مراد بك (ويشير إلى آمال):

أمَّ محمود ما لها ما لتلك المحبِّه

أم محمود:

ما لها سيدي

مراد بك:

انظري كيف تبدو مقطبة
لقيتني فلم تقم بلقائي مرحِّبه
ما لها اليوم مثل عهـ دي بها أمس مُغصِّبه

أم محمود:

سيدي قد ظلمتها إن ابنتي مُهدِّبه
غير أني وجدتها مُد بدا الصبح مُتعبه

شمس:

معذرة يا سيدي لأختي المعذِّبه
نحنُ النهارَ كلُّه كالسَّلع المقلِّبه

الفصل الأول

مراد بك:

مصطفى

مصطفى (في ناحية وحده):

سيدي

(لنفسه):

أهـذا مـراد؟ وَيَحُهُ ما أَضَلَّهُ فيمَ جاءَ

مراد بك:

مصطفى هل نسيتَ أَنَّا التَّقِينَا عند سوق الرقيق أمس مساءً

مصطفى:

سيدي ما نسيت واليوم نستا نف في حجرة الأمير اللقاء

مراد بك:

والتي اخترت من طبائك

مصطفى:

ترجيها إلى أن يرى الأمير الأطباء

علي بك الكبير

مراد بك:

أُتْرِى ما تَزالُ تُأبى

مصطفى:

أجل

مراد بك:

ويُحَكْ هل يملكُ الرقيقُ الإِباءَ

آمال:

سيدي مَنْ عَنِيتَ؟ قل لي بمن عَرَّضتَ؟

مراد بك:

أعني المليحة الحسناء

آمال:

سيدي إِننا حرائرُ ما زلنا

مراد بك:

ولكن غَدًا تصرن إماء

آمال:

وغدُ سيدي عليه غطاءٌ أُتْرِى عن غد كَشَفَتَ الغطاءَ

مراد بك:

قُمْ مصطفى، هذه الحسنة تُعجِبُنِي أليس يكفيك فيها ألف دينار

مصطفى:

ألف! قبلتُ

مراد بك:

إذن تأتيك كاملة فاخرج بينتك واحملها إلى داري

آمال:

أبي أبي أنت تمضي بي وتحملني كالشاة! هذا لعمرى أعظم العار

مصطفى:

آمال

آمال:

قف أنت عبد المال يا أبتى
تلقى البريء لأجل المال في النار
لا سيدي، لا أبي، لا تذكرنا ثمناً
فلست مخلوقة للبائع الشاري

مصطفى (لنفسه):

رباه أعظم من وجدي ومن شفقي
وأنت تعلم والأفعال شاهدة
على ابنتي اليوم إعجابي وإكباري
يا ألف سحفاً ويا مالاً امض من سبلي
أن ابنتي حُرَّةٌ من نسل أحرار
تقطعت منك أسبابي وأوطاري

(ثم لآمال):

علي بك الكبير

آمال هَيِّ اذكري لي كيف أدفعه

(ثم لنفسه):

ماذا أقولُ فإني لستُ بالداري

آمال:

أبي أما نحن في دار الأمير (علي) إني لجارة حُرٌّ مانع الجار
لا أبرح القصر إلا عن مشيئته فحكمه هو في النافذ الجاري

مراد بك:

ويح لي قد رُددتُ أقبح ردِّ وأبتُ أن تُجيبني الحساء

(لمصطفى):

سنرى من يفوز بالبنت يا وغد

(لآمال):

ومن يقتنيك يا حمقاء

(ويخرج مراد بك)

آمال (لنفسها):

ما بال قلبي بمراد مُدُّ تلاقينا اشتغل؟
لعلني أحببته لا لا، فما لي والرجل

الفصل الأول

عسايَ قد هُمْتُ به هذا لعمري الخَبَلُ
خيالُهُ في فكرتي في كل ساعة مَثَلُ
ما لي أَحْسُّ لَاعَجًا بين الجوانح اشتعلُ
إن فُتِحَ البابُ يُرى أولَ إنسانِ دَخَلُ
أو جيءَ بالزادِ وجَدَ دته بجانبِ أكلُ
وإن شربتُ حَضِرَ الماءَ فعَلَّ ونَهَلُ
قد أَخَذْتُ صورَتُهُ على مشاعري السُّبُلُ
وحيث سرتُ طاف بي وأينما حللتُ حلُ

أم محمود (تنظر إلى الباب وتقول):

أرى الأبوابَ قد فُتحت وأسمَعُ وقعَ أقدامِ

مصطفى:

عليٌّ جاءَ قَمَنَ له بإجلالِ وإعظامِ

(يدخل علي بك وفي حاشيته رزق الوكيل، الأغا مرجان، بعض الخدم)

علي بك:

أضعنا نهارك يا مصطفى أطلنا انتظارك لا عن جفا

مصطفى:

بباب الأمير وليِّ النِّعمِ يطيبُ الوقوفُ لأوفى الخدمِ

علي بك (همسًا لمصطفى):

يا مصطفى قد بعثني من سنوات ولدا

مصطفى:

أجل صبي كان من أذكى الصغار محتدا

علي بك:

ما ارتبت فيه ساعة أن سيكون سيذا

مصطفى:

عاش أبوه لا أرى أباه إلا أسدا

علي بك:

ولكنه لم يدُر في البلاد ولم يعرف الناس حتى فسدُ
فسلّ الحسام وهزّ القنّاء وأصبح عزريل هذا البلدُ

مصطفى:

ذاك ذئبٌ لم أبعه حنشٌ غيري باعه
بئس ما باعوك يا مؤ لاي يا شومّ البضاعة

علي بك:

وأين البنيات؟

مصطفى:

ها هُنَّ قُمُ — نَ وقارًا لمولاي في المجلس

علي بك:

تخير الحسن قبلي فكيف كيف اختياري

(علي بك لرزق):

يا رزق ما أنت راءٍ

رزق الوكيل:

كذا تكون الجواري

أم محمود:

بل قل ثلاث شمويسٍ تنزلت في نهار

علي بك (ممازحًا):

من أنت يا شرَّ وجهٍ ومن أحلك داري؟

أم محمود:

أنا يا مولاي حُسن الماشطه أنا في أمر البنات الواسطه

(ثم لنفسها):

ليتني أرجع يومًا غانيه ليتني يا ليتني يا ليتني
ليتني أرجع يومًا غانيه أه لو ينفع قولي: ليتني!

(أم محمود تأخذ يد شمس وتأتي بها):

علي بك الكبير

فهذي كاسمها شمسٌ ولكن حُسْنُهَا أَحْسَنُ

علي بك:

تعالى الله ما أبهى تعالى الله ما أفتن

(ثم ترجع شمس وتأتي بزكية):

أم محمود:

وهذه زكية

علي بك (معرضاً عنها ومشيراً إلى آمال):

وهذه الحورية؟

أم محمود:

مهارة فداها الغيد من شركسية
إذا برزت ودَّ النهارُ قميصَهَا
لها سيرة عند الملوك تُنارُ
يُغيرُ به شمس الضحى فَتَغَارُ
وإن نهضتْ للمشي ودَّ قوامَهَا
لها مَبْسَمٌ عاشَ الخليجُ لأهله
وعاشت لآلٍ في الخليج صغارُ
نساءً طوالٌ حولها وقصارُ

علي بك:

ما اسم هذي الفتاة؟

أم محمود:

آمالُ الحسناء

علي بك (لآمال):

آمال كيف ألفتِ قصري

آمال:

جنة الله يا أمير على الأرض ولم لا ألت سلطان مصر

علي بك:

وهذا الوشي والديبا ج ما موقعه منك؟
وهاتيك المصابيحُ من البلورِ والسُّلُكِ
وهذا الخشبُ المصنوعُ عُ بالصنلِ والمسكِ
لقد طفتِ على فار س والقوقاز والترک
وأدخلتِ قصور العز والثروة والملک
فهل أبصرت ما يشبه هذا الصنع أو يحكي؟

(ثم مستمرًا):

وكل ما أبصرت في قصري من صنع البلد
فليس يعلو الصانع المصري في الذوق أحد

آمال:

لا عجبٌ مولاي يا طالما قد بلغ الفن بمصر الكمال

علي بك:

لكن أرى القوقاز أعلى يدًا من غيره يصنع هذا الجمال؟

علي بك الكبير

آمال:

يدي

مصطفى (همسًا):

حاذري ابنتي قدري المؤقف لا يخطر العقوق ببالك

آمال:

لا أبي، خلني أبخ أشك بئي خذل الصبر قلبي المتمالك

(آمال لعلي بك)

سيدي

علي بك:

ما أرى؟ دموع لآل زهبت في الخدود شتى المسالك
مم تشكين يا ابنتي ما وراء الدمع؟

آمال:

لا شيء

علي بك:

بيني ما هنالك!

آمال:

سيدي، غيرُ شأننا بك أولى
تُشترى النفسُ أو تُباعَ على الأر
هذه السوق لم تَلِقَ بجلالك
ض ولم يرض في السماء المالك

مصطفى:

قلِّي الهمَّ يا ابنتي والتَّشكي
هذه السوقُ نعمةُ الوطن البا
وانظري الحال وافكري بمآك
ئس منها

علي بك:

ونحنُ نعلمُ ذلك
لُ، حالي يا بنتُ من مثل حالك
قد وقفنا بهذه السوق نبغي
وقديماً كانت سبيلَ المعالي
للمماليك أو سبيلَ المهالك
دولاً من ورائها وممالك

(علي بك مستمراً)

لك الله يا آمال، أنت كبيرة
فداؤك نفسي هذه نفس حرة
أتيت بما لم يأت فيما مضى لهم
شرونا وباعونا صغاراً وفتية
فما كان منا من رأى الرُّقَّ سُبَّةً
وكل كبير النفس سوف يسود
وهذا إباء ما عليه مزيد
ملوكُ على عرش الكنانة صيد
كما بيع السودان بمصر عبيد
ومن قال عند البيع لست أريد

(ثم مستمراً):

الخطبُ غيرُ عظيم
وكلُّ جرح يُداوى
لا تحزني يا فتاة
إن عالجتَه الأساءة

علي بك الكبير

آمال:

مولاي قالوا رُزِقْتَ نفسًا فضائلُ الصالحينَ فيها
بأبي دين تحوزُ رقي وتشتري البنت من أبيها

علي بك:

أبوك؟!

آمال:

أجل والدي

علي بك:

مصطفى أأنت أبوها؟

مصطفى:

أجل سيدي

علي بك:

فماذا ترى؟

مصطفى:

في يديك الفتاة تصرّف لقد خرجت من يدي

علي بك:

دع البيع يا مصطفى والشراء وزوج فتاتك أو فاردد

مصطفى:

بمن؟

علي بك:

بي

مصطفى:

إلهي!

علي بك:

أجل بي أنا

مصطفى:

سمعت فتاتي اشكريه احمدي

آمال:

علام أجربيتته بعد؟ لا سأعلم ما صاحبي في غد

علي بك:

لم تقبلي الرق منذ حين يا لك من حرة نبيله

علي بك الكبير

والآن تخشِين من زواج تمشينَ في ظلِّه ذليلَه
أمال

أمال:

مولاي

علي بك:

هاك قصري سُوسيه بالنبل والفضيله

أم محمود:

تحيةً للملكه من أمة في المملكه

مصطفى:

أقبلُ سترَ مولاتي

أمال:

أبي! أستغفر الله!

علي بك:

وأنت الملكة اليومَ
وحلَّيها حُلُولَ الشم
وكوني قُفْلَ أموالِي
ولا يَهْمُكَ تَرْحَالِي
مُري وأنهي على الدار
س في أرجاء آذار
وأذخاري وأسراري
ولا تشغلك أسفاري
فللمغنم والصيد
خفوف الأسد الضاري

الفصل الأول

وللرفعة والمجد سفار القمر الساري

آمال:

مولاي هاتها يداً
قد طوّقتني خير يد
هات أضع في راحتيد
ك قُبلاً بلا عدد

مصطفى:

يا للجلال والخطر
من البشير بالخبر
حظّ لعمرى قد كمل
وكلّ دارع نزل
ويا لتوفيق القدر
إلى البيوت والأسر
فمن يُبلِّغ الجبل
على الشعاب والقلل
أنا ظفرنا بالأمل

أم محمود:

قمن بنات الشركس
زدن سرور المجلس
للهو والتانس
برقصنّ الحمس

شمس:

عشاق ماذا أحرّك
قم لالعب الغيد نرك
لم لم تجرد خنجرك
كيف تخوض المعترك

عشاق:

غداً يُعقد للوالي
جبال الشركس اختالي
على الحسناء آمال
بهذا النسب العالي
هلموا الفرخ الأكبر
هلموا رقصة الخنجر

علي بك الكبير

غَدًا يَمْتَلِكُ الْوَادِي مِنْ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي
فَمَنْ طَالِبُ أَفْرَاحٍ وَمَنْ شَاهِدُ أَعْيَادٍ
هَلُمُوا الْفَرَحَ الْأَكْبَرَ هَلُمُوا رَقِصَةَ الْخَنْجَرِ
غَدًا يَبْتَهِجُ الْعَصْرُ وَتُمْسِي فَرِحًا مِصْرُ
وَتُجْلِي الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَيَزْهُو بِهِمَا الْقَصْرُ
هَلُمُوا الْفَرَحَ الْأَكْبَرَ هَلُمُوا رَقِصَةَ الْخَنْجَرِ

(هتاف خارج القصر):

لَا زَلْتَ مَنْصُورَ الْقَنَا يَا أَسَدَ الْمَعَارِكِ
أَطَعَمْتَنَا سَقِيَّتَنَا يَا رَبِّ زِدْ وَبَارِكْ

علي بك:

اسمعوا

رزق:

ضجّة

الأغا مرجان:

أَجَلٌ وَابْتِهَالٌ وَرِجَالٌ بَسِيدِي يَهْتَفُونَا

علي بك:

مَنْ تَرَى الْهَاتِفُونَ رِزْقُ وَيَا مَر جَانُ أُخْرِجْ فَانظُرْ مَنْ الصَّاحِبُونَ

الأغنا:

عادةً تلك كل يوم خميس عندنا ألف جائع يطعمونا

علي بك:

امض فاجعل في كَفِّ كلِّ فقير ذهباً يُطعمونَ منه البنينا
نفحةً من أميرة النيل مولاتك

آمال:

بل منك سيِّد المحسنينا

رزق:

مولاي

علي بك:

من؟ أو رزقُ ذا؟

رزق:

كم ذا تجودُ وكم تَهَبُ
إن الخزانة أضمَّحتُ بنداكَ كالجرِّ الخَرِبِ
الفضَّةُ انفضَّتْ وما قد كان من ذهبٍ ذَهَبِ
رمضان راحَ بنصفه والنصف راحَ به رَجَبِ

علي بك:

أجل نحنُ أطعمنا الفقير ولم يُكُنْ
ونحن سقينَا ابن السبيل ولم يكن
ونحنُ حَضَّنَا اليُتْمَ نَمسُحُ دمعَهُ
ترى الزاد مبدولاً وفي كل ساحة
ونبني فركنٌ للثقافة والحجا
ودارٌ يُواسى البؤسُ فيها ومنزلٌ
ونرفقُ بالعجماء تأسو جراحها
له في قصور المُتْرِفِينَ طعام
يُبَلُّ له فوق الطريق أواهُ
وأواهُ منا محسنون كرامُ
يتامى قعودٌ حولَهُ وقيام
يُشَادُ وركنٌ للصلاة يُقامُ
تُدَاوى جراحاتُ به وسقامُ
تُقَاتُ على ساحاتنا وتنامُ

(علي بك للأغا مرجان وهو بالباب)

مرجان، خيرُ

مرجان:

سيدي (بشيرُ)

علي بك:

أدخله ليسَ دونَهُ ستور

(لآمال):

أميرتي لا تُراعي بشيرُ من أولادي

آمال (لأم محمود):

إن مولايَ شغله بالمهمات قد كُتِرُ

الفصل الأول

أم محمود

أم محمود:

مَلِكْتِي ما تُرِيدِينَ ما الحَبْرُ

آمال:

شمس

شمس:

لبيك ملكتي دونك الشمس والقمر

آمال (لزكية):

أختُ

زكية:

أفديك ملكتي زاد في شأنك القدر

آمال:

جُلْنَ في القصرِ جَوْلَةً وتَنَقَّلْنَ في الحُجَرِ
نَحْنُ في الوُدِّ والصفَا ءِ كَأَمْسِ الَّذِي غَبَرَ
عَشْنَ ضَيْفًا عَلَيَّ في الـ قصر ما امتدَّ بي العُمُرُ

(يخرجن مع مصطفى وعشاق، ويدخل بشير بك فتننحي آمال ناحية من
الحجرة تشرف من نافذة فيها على ساحة الدار)

علي بك الكبير

علي بك:

ماذا وراءك يا بشير؟

بشير بك:

شأنٌ سأعرضه خطيرٌ

علي بك:

قل

بشير بك:

لا أقولُ لأنه شأنٌ يُسرُّ إلى الأمير

(علي بك يذهب ببشير بك إلى ناحية أخرى من الحجرة):

علي بك:

عجل وكاشفني بما بَلَغَتْ من الجدِّ الأمور
والبَبْوُ

بشير بك:

مَنْ؟

علي بك:

أبو الذهب

بشير بك:

يَأْخُذُ لِلشَّرِّ الْأَهْبُ
حاز الأقاليم إليـه هـ وتَأَلَّفَ العَرَبُ
والغُرُّ فِي رِكَابِهِ والشعْبُ جِذْلَانُ طَرِبُ
فلنرتحل فربما جُنَّ فَعَجَلَ الطَّلِبُ

علي بك:

أرى الأزمَةَ اشْتَدَّتْ وَأَبْطَأَ انْفِرَاجُهَا

بشير بك:

فصبرًا عساها آذنت بذهاب

علي بك:

صَبَرْتُ طَوِيلًا يَا بَشِيرُ فَمَا جَلَا
وَلَوْ أَنَّ رُزْئِي بِالْغَرِيبِ احْتَمَلْتُهُ
يُطَارِدُنِي فِي الْأَرْضِ مِنْ دَبِّ فِي يَدِي
وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِبَاسِي وَسَطَوْتِي
وَمَنْ عَشَتْ أَبْنِيهِ وَأَعْمُرُ رِكَنَهُ
لَقَدْ آنَ أَنْ أَسْعَى وَأَنْ أَدْفَعَ الْأَذَى
إِلَى كَمِّ قَعُودِي عَنْ عَدُوِّي وَكَيْدِهِ
سَأَخْرُجُ نَحْوَ الشَّامِ فِي فَلِّ شِيعَتِي
وَلَا نَزَلَ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ مُصَابِي
وَلَكِنْ بِأَهْلِي نَكَبْتِي وَعَذَابِي
وَرُبِّي فِي حَجْرِي وَشَبَّ بِبَابِي
فَلَمَّا حَوَاهَا فِي يَدِيهِ سَطَا بِي
فَصَيَّرَ هَدْمِي شُغْلَهُ وَخِرَابِي
بَشِيرُ امضْ هَيِّئِ لِلرَّحِيلِ رِكَابِي
وَهَذَا عَدُوِّي لَا يَمَلُّ طَلَابِي
فَهَيِّئِ جِيَادِي وَادِعْ خَيْرَ صَحَابِي

بشير بك:

وماذا وراء الشام؟

علي بك:

أُسْدٌ ضَرَاغِمٌ أَلْفُهُمُو حَوْلِي لِنُصْرَةِ غَابِي
يزيد بهم جيشي وتقوى عشيرتي ويشد ظفري في القتال ونابي
الآن فرغنا

بشير بك:

أجل سيدي أمضي؟

علي بك:

بل ابق انتظر يا بشير
إذا أنا قضيت هذا المساء بقرب الأميرة ماذا يصير

بشير بك:

وليل غد والذي بعده ونحن فنمضي فنأتي العريش
ونهرّب من منكر أو نكير كثير التواري قليل الظهور
وتدركنا أنت مستمهاً

علي بك:

بل امض بنا سر بنا سر بنا فما جلب الخير مثل البكور

(لآمال):

لا تجزعي أميرتي لا بد لي من السفر
لقد دعت حادثة من الحوادث الكبر

الفصل الأول

كَيْفَ زَوَّجَ وَسَفَّرَ مُزَاحَةً مِنَ الْقَدَرِ
أَغْيَبَ شَهْرًا وَاحِدًا فَاَنْتَظِرِي

آمال:

سأنتظر

علي بك:

مَا أَنْتِ إِلَّا مَلَكٌ نَهَى بِقَصْرِي وَأَمْرٌ
فِي نِزْمَةِ اللَّهِ يَا رَبَّةَ الْقَصْرِ

آمال:

وَأَنْتَ مَوْلَايَ شُبِّعْتَ بِالنَّصْرِ

علي بك (لرزق):

سَأَصْعِدُ يَا رِزْقُ نَحْوَ الصَّعِيدِ لِشُغْلٍ

رزق:

وَلِمَ لَا صَعُودَ الْقَمَرِ

(ثم لنفسه):

صُعُودَ الدِّخَانِ إِلَى ذُرُوبَةٍ إِذَا صَارَ فِيهَا أَمْحَى وَانْدَثَرُ

علي بك:

وما في الخزانة أو في القصور بأمر الأميرة فيه ائتمر

(لآمال):

هكذا مصر كل يوم شئون وكأن البلاد خيلُ جهاد
شغلت مصر بالشئون الناسا كلَّ يوم تُبدلُ السُواسَا

رزق الوكيل (لنفسه):

لا رحلةً، لا سَفَرُ وما الصعيد يقصدون
هذا لعمرَي الهَرَبُ أما أنا فقد ملأتُ
بل إلى الشام الطلب إذا الزمان بعليّ
اليد من أبي الذهب يجعلني محمد
بعد حين انقلَبُ على خزائن الذهب

علي بك:

سلام على قصر الإمارة والغنى ووالله ما فارقت مغنأك عن قلبي
وأعلمُ أنني عنك لا بدَّ زائلٌ ولكن أُمورٌ قد جَرَتْ وحوادثُ
فخالفتني من كان عند إشارتي وعقَّ الذي ربيت في حجر نعمتي
تألَّف أصحابي وألَّب شيعتي لقد جئتُ بابن ليس لي فكأنما
تفرَّق عني الناسُ إلا بطانتي سأمضي وما عندي لهم إن تركتهم
وأيوان سلطاني ودست جلاي ولا خطرت سلوى الأمور ببالي
وأُنك مني لا محالة خال بنقلية دنيا أو تبدل حال
يصول بجاهي أو يعيش بمالي ووطأتُ أكنافي له وظلالي
عليّ وأغرى بالخروج رجالي أتيتُ بأفعى من سحيق تلال
ولم يبقَ حولي اليومَ غيرُ عيالي سوى قوتِ أيامٍ وخبز ليالٍ

الفصل الأول

وقد زَعَمَ النَّاسُ الْغِنَى فِي خَزَانَتِي
وَأُقْسِمُ لَمْ تُحْرَزْ يَمِينِي بِرَهْمًا
أَسِيرَ أَجَلٍ أَمْضِي نَعَمُ فَعَسَى السُّرَى
فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا حَالَةٌ ثُمَّ ضُدُّهَا
وَتِلْكَ الَّتِي أَحْبَبْتُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ
أَعُودُ إِلَيْهَا فِي الْمَوَاقِبِ ظَافِرًا
وَأَرْجِعُ حُرًّا تَحْتِي النِّيلُ كُلَّهُ
أَتَى مِنْ حَرَامٍ تَارَةً وَحَلَالٍ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا أَنْفَقْتَهُ شِمَالِي
تَرُوحُ بِنَجْمِي أَوْ تَجِي بِهِلَالِي
وَإِلَّا لِيَالٍ بَعْدَهُنَّ لِيَالٍ
وَأَشْرَكَتُ فِي مُلْكٍ وَشِيكَ زَوَالٍ
وَفَرَقِي بِالنَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ حَالِي
وَمَا مِنْ بَنِي عَثْمَانَ فَوْقِي وَالِ

(يخرج علي بك ومعه بشير بك ورزق الوكيل ويبقى مرجان بالباب)

(تسمع ضجة وصرخة من امرأة أمام القصر تقول)

يا رَبَّةَ الْقَصْرِ لا مَسَّكَ الضُّرُّ
هل عندكم غوث هل عندكم نصر
لحرّة في وادِّ ليس به حُرُّ

آمال:

مرجان ويحي هذه صيحة وامرأة صارخة باكيه
مرجان انظر

مرجان:

هيَ نِي أَقْبَلْتِ مُعَوْلَةً صَاخِبَةً شَاكِيَهُ

(تدخل امرأة مقطوعة الأذن وصارخة)

آمال:

ماذا دهي يا خاله أنت بشر حاله
ذا الدم من أساله؟

المرأة:

جنود وراء كبير لهم من الدين قد جردوا والخلق
أتوا دارنا فمضى نصفهم أزال العفاف ونصف سرق
ومال على أذني بعضهم بسكينه طمعاً في الحلق

(آمال تدفع إلى مرجان صرة):

مرجان خذ ناول

مرجان:

تعالني خذي

آمال:

لا بأس يا خالة لا بأس
انتظري عود علي غداً ففي غد يرتدع الناس

(المرأة تأخذ الصرة وتصيح مولولة)

وأذني أين ألقاها مضت آها لها آها
ويا من عنده أذني أما يكفيك قرطاهها

(تسمع ضجة ثم تدخل فتاة مذعورة)

الفصل الأول

الفتاة:

سيدتي

آمال:

وأنت أيضاً

الفتاة:

رحمةً سيدتي

آمال:

ما تشكين؟ ما دهى؟

الفتاة:

الآن يا سيدتي
يُدَّبِّحُونَ إِخْوَتِي فِي سَاحَةِ الرُّمَيْلَةِ

آمال:

ويح لهم ماذا جنوا ويح لهم

الفتاة:

لا شيء

علي بك الكبير

آمال:

لا لا بُدَّ من داع دَعَا
النفسُ لا تُقْتَلُ يا أُختُ سُدِّي

الفتاة:

صدقت يا أميرتي إلا هنا
لا ينزلُ الرأسُ بمصرَ جسدًا إلا نزول المرء في بيتِ الكِرا

آمال:

تَدَكَّرِي قُولي لِي الحق اصدُقي

الفتاة (في حياء):

قد سَرَقَ الإخوة جحشَ الكُتُخدا

آمال:

سُرَّ امضِ مرجانُ مع الفتاة واشفع لى الحاكِمِ للجنةِ

(ينصرف مرجان مع الفتاة)

(يدخل أغا آخر ويقول):

سيدتي

آمال:

وَأَنْتَ مَا عِنْدَكَ قُلُّ

الأغنا:

ابنُ الأمير سيدي مرادُ

آمال:

ابنُ الأمير! هيَّ عَجَلٌ جِيءَ بِهِ أَكُلُّهُمْ لِسَيِّدِي أَوْلَادٍ
أَدْخَلَ مَرَادًا وَأَثَّتَنِي بِمُصْطَفَى

(آمال لنفسها)

أَخَافُ إِنْ قَلْتُ أَبِي أَنْ يَعْرِفَا

(يظهر مراد بك)

(آمال لنفسها)

ويحي وويحُ لعلِّي ما أرى إني أرى الغدَرَ على هذا الفتَى

مراد بك:

تحيَّةٌ سيديتي أتذكِّرين مَنْ أنا؟

آمال:

كل الذي أعرفه ابن الأمير ها هنا

مراد بك:

أميرتي قد خدعوك ما عليّ لي أبا
ما أنا إلا صاحبٌ قدّمه وقرباً

آمال:

يا عجباً!

مراد بك:

ومم يا مالكة القلب العجب
وكلُّ ما في الأمر أن ليس عليّ لي بأب
وليس ما يمنعني من أن أحبّ وأحبّ

آمال:

تُحِبُّ أو تُحَبُّ قو لُ لا يليقُ بالأدب
نسيَت للقصرِ ولي ولأبيك ما وَجَبْ

مراد بك:

قد عرفناك يا أميرتي إننا أمسِ التقينا في معرض الجلاب

(مراد مستمراً)

ذهبت لأشري فاشتراني وباعني
هَمَمْتُ ولكن صاحبُ الصيدِ ردّني
ولم يدر أنني فوق شأنِ محمدٍ
إذا ما حوتني كِفَّةُ رجح الذي
غزالُ بسهم المقلّتين رمانِي
وصيّر سلطان البلادِ مكاني
وشأن عليّ في الرياسة شاني
رمى بي في ميزانه فحواني

الفصل الأول

وجاء عليُّ فاشترى

آمال:

لست صادقاً بنى بي أمير للمكارم بان

مراد بك:

وماذا يعيبُهُ وطار عن الوادي
ألم تُخلَق العقبان للظيران

(مراد بك يقترب منها)

آمال لو تعرفينا آمال لو تعطفينا

مصطفى (بالباب وقد سمع كلامهما):

(لنفسه):

أرى شبح الجريمة حامٍ حولي كما ناش الغريم الأفعوان

آمال (مراد بك):

لا تدعني باسمي ولكن نادني باللقب
مرادُ هذا هوسٌ قف عند حدِّ الأدب
مراد ما مقصورتني بمجلس لأجنبي

اخـرج

علي بك الكبير

مراد بك:

على رسلكِ مولاتي

آمال:

دعني إذهب

مراد بك:

بحقُّ الحبِّ مولاتي

آمال:

ظلمتَ الحبَّ يا غادر
فما الحبُّ فُضولِي ولا لُصُّ ولا فاجر
ولكن معدن النبل وكنز الخُلُق الطاهر

(تنحسر العمامة عن جبهة مراد بك فيظهر أثر جرح قديم على جبينه كان قد أصيب به في صغره ...)

مصطفى (بعد أن يرى أثر الجرح وهو بالباب):

إلهي هذا جُرْحُه نا مكانه
إلهي هذا الجرح فوق جبينه
لقد بارز الصبيان بالسيف ناشئاً
إلهي أرى أشياء نَمَّ مهولةً
إلهي لا تجعله حقاً ومُرَّ أكن
كفى غضباً يا ربُّ حسب عقوبةً
إلهي كانت هفتوتي عن غَوَايَةِ
أما كان طولُ الدهر للجرحٍ لائماً
مَصَّتْ سنواتُ ما مَحَوْنَ العلائماً
فصادفَ سيفاً خَدَشَ الرأسَ صارما
وأشفقُ فيها من عقابك صارما
بما أنا راءٍ من عذابك حالما
وحاشاك لم تظلم ولم تك ظالما
فتبَّتْ فكن لي فيهما اليوم راحما

الفصل الأول

آمال (لمصطفى):

وا أبتا!

مصطفى:

ليئك آمالُ

آمال:

إليَّ يا أبي

مصطفى:

أحبُّ بهذا الصوت أحبُّ بالنداء أحبُّ

آمال:

أبي

مصطفى:

ابنتي أنتِ هنا؟

آمال:

تعالِ قف بجانبِي

مصطفى:

لا بأس يا ابنتي عليـ ك دونَ ناديك دمي

آمال:

أبي لقد ديسَّ العرينُ في غيابِ الضَّيْغَمِ

مصطفى:

مَنْ في مقاصير الأمير؟ ما أرى من الفتى؟

آمال:

ذئبُ بشكل آدم للصيد في الغاب أتى

مصطفى (مهممًا):

خنجري أين خنجري اليومَ مني
فغسل العارَ والدنيَّةَ عني
عابثٌ، أو يريحه هو مني
أنني الليث ساعدي هو سني
هو يطغى بسنه سأريه
فغسى أن يُريحني من صبيِّ

آمال:

أبتي ما تقول؟ ماذا تلمست؟

مصطفى:

سلاحي

آمال:

لا لا أبي لا ترعني

(آمال لمراد بك)

الفصل الأول

بريك إلا حقنت الدماء

مراد بك:

دمائي أنا أم دماء اللعين؟

مصطفى:

أتلعنني يا أضلَّ الشباب أتلعنني يا أعقَّ البنين

مراد بك:

ولم لا وما لك من حُرْمَةٍ

مصطفى:

ستعلم ما حرمتي بعد حين
سأقلع عيناً سمت للباة وأقطع رجلاً مشت في العرين

آمال:

كفى هوساً أيُّ هذا الأمير

مراد بك:

أبي هوس مُكْتِي!

آمال:

بل جنون

علي بك الكبير

كفى جرأة

مراد بك:

وعلامَ اجترأت؟

آمال:

على امرأةٍ تحفظ الغائبين

مصطفى:

مراد لك الويل من سادرٍ وقاح اللسان وقاح الجبين
هتكتَ على الحزن محرابه ودُستَ على عبرات الحزين
ولم تحتشم في خطاب الشيوخ ولم ترج فيهم وقار السنين

(مصطفى لنفسه وهو يبحث عن خنجره)

رَبِّ ضَلَّلْ يَدِي وَحَطَّمْ سِلَاحِي رَبِّ لَا تَقْضِ أَنْي أَقْتُلْ ابْنِي

مراد بك:

سيسبق سيفي خنجر الشيخ

مصطفى:

مـرـحـبـاً بسيفك من ماضي الحديد يماني
فهايت مرادُ السيفِ هاتِ منيَّتي أرخُ من عذاب الحادثاتِ جناني

مراد بك (وقد شهر سيفه):

إلهي ما لي قد غلبت على يدي وما بال نفسي بعد طول جمودها
وما بال سيفي إذ هممتُ عصاني عَفَوْتُ فَمِلْ يا شَيْخُ مِلْ عَنِّي انطلق
قد انفجرت من رحمةٍ وحنان وعش ناعماً في غبطةٍ وأمان

مصطفى:

أميري ذا رأسي فخذهُ بضريةٍ

(يخرج مراد بك)

عساني أرى هدء الضمير عساني

(مصطفى لنفسه، ويتبع مراد بك)

أأنتيه؟ لم لا؟ لا. بل استأن مصطفى أأذكر لابني كيف خسة شاني

آمال (لنفسها):

ويح لي ويح قد قسوتُ عليه ما الذي استوجب الأمير وما
ويح قلبي يحبه كذب القلب هو مستهترٌ على حجراتي
لا. بل القلب شغلُهُ بمراد ربُّ ما لي أحسُّ نحو مراد
وحناناً كأنه رقة العشق صدق الأولون الآن أدري
كيف قلبي تحبه كيف تهواه

وتجاوزتُ في العقوبة حدي أذنبَ حتى رددته شرراً رد
وبعداً لحبه ألف بُعد وتناسى أمانة الزوج عندي
هو شغلي من الحياة وقصدي شففاً زائداً ولوعة وجد
جرى في دمي ولحمي وجلدي كيف تجزي القلوب ودًا بود
بودي لو تستفيق بودي

وسدّي أسترّدُ عقلي ورُشدي
وفي سلوة الهوى غير مُجد
وما لي أغالبُ الشوقُ جهدي
من سنا الصبح بعد ليلة سُهد
أفي الحقُّ أن يُجازي بطردِ
نصيرًا يرد عني التعدي
ركن دنياي أو دِعامه مجدي
ارجعي للصواب (آمال) جدّي
وتقضي حقوقه وتؤدي
من سلام إذا التقينا وردّ
وأرى حُفرةً وأخشى التردّي
وأعني على الوفاء بعهدي
كيف أهوى على هوى الزوج عندي

عبتًا أمرُ الفؤادِ وأنهي
كلُّ نصح يُقال للقلب في التّرك
لم لا أشتهي مرادًا وأهواه
ومرادُ ألدُّ في العين لمحا
ملكُ جاء حجرتي يشرحُ الحُبَّ
لمَ لمَ أتخذة في حادث الدهر
لمَ لمَ أتخذة بعد عليّ
لا وربُّ الجلال والحقُّ (آمال)
أنت من أمة تصون حمى الزوج
ربُّ لا تجعل العَلاقة إلا
ربُّ إن البلاء مني قريبُ
رب لا تقض أن أخون عليًا
أنا حيرى وأنت تهدي الحيارى

(ثم مستمرة):

على الأمير ولا تجزيه طغيانا
إن اللبابة تحوط الغاب أحيانا
يُلبسك تاجًا ولم يُنزلك إيوانا
بعد الزواج ولم ينهل إحسانا
يبني لدولته في الأرض أركانا
وتجعل الحرّة الفضلى له شانا
لا تجعللي المَلَك المهديّ شيطانا

لا لا رويدك يا آمال لا تثبي
واحمي حمى الليث في أيام غيبته
هيبه لم يخلع الدنيا عليك ولم
هيبه لم ينفجر قبل الزواج ولا
هيبه سافر في شأن له جَللٍ
أما هو الزوج يُرعى حقُّ غيبته
لقد أقامك في محرابه ملكًا

الفصل الثاني

في قلعة ضاهر العُمر صاحب عكا

(فناء قليل الضوء مبني من الحجر انتشرت المصاطب في جوانبه، يطل من بعض جهاته على الميناء حيث يرسو الأسطول الروسي، في ناحية من فناء الدار بعض الجند يتحدثون ...)

أحد الجند:

سمعتُم الرعد؟

آخر:

سمعنا القَعْقَعَة
بربكم هل في السماء مسبعه؟
أم في السماء وقعة ومعمعه

الأول:

كجبل من الرخام انشَقَّ
أو كالنحاس بالنحاس دُقَّ

الثاني:

والبرقُ لمحَّةُ القَبَسِ أو زفرةٌ حَرَى النَّفْسِ
أو كالدم القاني انجس
شَقَّ الظلامَ وَخَفَقَ على مُلاءةِ الأفقِ
كأنه خِيَطُ الشَّفَقِ

حبيش:

ضرغام

ضرغام:

ماذا يا حبيش؟

حبيش:

أَلَعَمَى لك العَمَى
البرد زاد

ضرغام:

صه أما في طوبة نحن أما

الفصل الثاني

حبيش:

ضرغام إني قد حسدت القوم في جهنمًا

ضرغام:

اصعد إليهم إن أردت

حبيش:

كيف؟

ضرغام:

هاك سلما
وانشد حماتي بينهم وطف بها مُسَلِّمًا

حبيش (للاط):

مَلَّاط

ملاط:

لَيْبِكُ حُبَيْشُ

حبيش:

قم أخي لك العَطْبُ

ملاط:

وما الذي أصنع يا حبيش

حبيش:

جئنا بحطب

ملاط:

من أين؟

حبيش:

قم خذ كلَّ ما لاقى يداك من خشب

ملاط:

كيف أُجْرُ السـ ااق والبرد بأطرافي ذهب
كأنني مَيِّتُ اليهود نُزَعْتُ منه الرُّكْب

حبيش:

يا لك بردًا قارسًا وزمهيرًا لاذعا
لا الصوف فيه واقياً ولا الحرير نافعا

ضرغام:

ما الصوف ما الحريد ر لا لا أعطنا برادعا

حبّيش:

انظر قَفَا صاجِبنا كأنه بغل ذُبْح
وانظر أهاتيك أنو فُ في الوجوه أم بلح؟
كأن كل رُجُل في أذنيه قد جُرح

(تُسمع فرقعة)

آخر:

صوت؟!

ضرغام:

أجل!

الأول:

ما الصوت؟

ضرغام:

تلك فرقعه

الأول:

وأين؟

ضرغام:

عند التركِ هل من موقعة؟

علي بك الكبير

(تسمع فرقة ثانية)

حبيش:

وذاك؟

الأول:

مدفَعُ وتلك بُندقُه
اسمع!

ضرغام:

وما ذلك!

الأول:

تلك طقطقه
أقدامُ خيلٍ في الفضاءِ مُطلقه

ملاط:

رَبِّي متى ينقضي البلاءُ وتنقضي الحربُ والشتاءُ

حبيش:

رَبِّي متى نَنعمُ بالسُّلمِ متى كم ذا إلى كم نحنُ حربٌ وشتا

آخر:

كم أنا كالفار شقي من خندقٍ لخندقٍ

الفصل الثاني

أصحو على المدفع أو على صفير البندق

حبيش:

قل لنا يا خرابُ ما هذه الحالُ؟ متى تنتهي؟ وأين المصيرُ؟
قد سئمنا القتالَ واشتاقت الزوج
وتركنا وراءنا الدورَ عزَّ القم
وبنو ضاهرٍ شرايهمو العُنْد
إلى زوجها وحنَّ الصغير
ح فيها وقلَّ فيها الشعير
سب والشَّهد قوتهمُ والفطير

آخر:

كل حين يجيء من مصر جيش
وأميرٌ يقاتلُ التركَ في مصر
نحنُ ما بينَ مصرَ والتركِ ضِعنا
غنم نحن بين راعٍ وذئبٍ
ينزل القدس أو يحلُّ الشأما
أتى شاهرًا علينا الحُساما
وَسَيِّمْنَا الحِياةَ والأياما
أي هذين جاع كنا طعاما

آخر:

وغدًا ...

حبيش:

ما غدُّ؟

الأول:

بلاءٌ عظيم

علي بك الكبير

حبيش وآخرون:

كيف! ما ذاك؟

الأول:

اسألوا ضرغاماً

ضرغام:

العمى للرجال ما تبصرون الفلـك لك في البحر تشبه الأعلاما

آخر:

فـلـك مـن؟
فُلُكُ قَيصِرِ الرُّوسِ فِي البَحْرِ ر تَصَبُّ الرِّدَى وَتَرْمِي الحَمَامَا
قِطْعٍ مِنْ جَهَنَّمَ رَاسِيَاتٌ قَعْدَ الشَّرِّ حَوْلَهُنَّ وَقَامَا
وَعَدًّا يَنْزِلُ الجُنُودَ فِيحـ تَلُونَ هَذِي القِلاعِ وَالْأَجَامَا

ملاط:

إِذْنِ فَأَهْلًا بَعْدِ إِنْ عَدًّا قَدْ اقْتَرَبِ

آخر:

كيف! وماذا في غد؟

ملاط:

فِيهِ كَرَائِمِ السَّلْبِ عَدًّا نَفُوزَ بِالسَّلَاحِ
والمَلابِسِ القُشْبِ

آخر:

وما على الصدور من قلائدٍ ومن صُلبٍ
وعادة الروس ينـ وعون بصلبان الذهب

(يدخل ضاهر العمر ومعه حسين المصري)

ضاهر:

وكيف حال الدار؟

حسين:

غابـة الأَسـل أو هي وكر النسـر في رأس الجبل

ضاهر:

وسَهَرُ الدار على الضيف الأجل

حسين:

تحفظه حفظ الجفون للمقل

ضاهر:

والشام. كيف تجد الشام؟

حسين:

نُـ _____ زُلُ
أنهارها من لبنٍ ومن عسل لا شيء إلا في ذرا الشام كمل
يليق في جنة عدن للرُّسل

علي بك الكبير

إن تخلُّ من شيء فمِن لحم الحَمَلُ

ضاهر (ويصفق):

غَضبانُ صعبُ يا عبوسُ يا نكد

صعب وغضبان:

لبيك مولاي اقترح أَشْرُ تجدُ

ضاهر:

امضوا اجمعوا الحملان من سوق البلد وقدموها للضيوف منذُ غدُ

(ينسحب حسين والخدامان)

(يدخل خادم ويقول):

مولاي

ضاهر:

ماذا.. زائر آخر؟

الخادم:

لا سيدي، بل هذه زائره

الفصل الثاني

ضاهر:

امراًة أنثى؟

الخدام:

أجل سيدي

ضاهر:

وما اسمها؟

الخدام:

لم ترض أن تذكره

ضاهر:

هل صرّحت من أين جاءت؟

الخدام:

أجل من مصر مولاي من القاهرة

ضاهر:

وما سنها؟

الخدام:

غادة في الصبا تُشَبِّهها الزنبق الطيبا

علي بك الكبير

وقد لبست حلة للسفار وشالاً كوشي الضحى مُذهبا
تريدُ تقابلُ ضيفَ الأمير

ضاهر:

تريدُ علياً إذن مرحبا

(ثم لنفسه):

إلهي أنثى لداري سعتُ تريدُ علياً فما تطلبُ
تُرى امرأةً هي أم حيَّة تُريدُ صديقي أم عقربُ

(يخرج ثم يعود بشمس)

شمس:

سلامٌ لك مولاي

ضاهر:

سلامٌ جارة الدار
فما أنتِ؟ وما تبغين؟ من ضيفي ومن جاري

شمس:

رسولُ أنا يا مولاي قد جئتُ بأخبار
جرى في مصرِ الدهر بأحوال وأقدار

الفصل الثاني

ضاهر:

وما ذلك؟

شمس:

لا أعطِي سوى مولاي أسراري

ضاهر:

هيّ تقدم فتّش السیده

شمس:

لا سيدي يحسن أن تبعده
مُر لا يمدّ الوحش نحو يده

الخادم (ويتقدم نحوها):

ما ضرّ لو زححت الـ غادة فضل البرقع

شمس:

ما لك يا وغد وللـ برقع دع عنك دع

الخادم:

عمى لك يا عمر ما ذي غدا
وتلك الجفون سلاح مضي
وفي الصدر غدارة ها هنا
وهذا القوام كرمح الأمير
نرُ لكنها أفعوان قبع
وسهم أصاب وسيف قطع
وأخرى إلى جانبيها تقع
إذا اهتز في كفه أو لمع

علي بك الكبير

أميري أأنزع منها السلاح

(يدخل علي بك)

علي بك (بعد أن يسمع):

سلاح الملاحة لا ينتزع

(ينسل ضاهر)

(علي بك لشمس)

أهلاً بشميس بالرسول ومرحباً
كيف الأحبّة (شمس) هاتي خبري
كيف الديار وكيف قصري هل ترى
أتراهمو قد ردهم خدمي وقد
وموائدي يا شمس كيف موائدي
بنسيم مصرَ ونفحة الأحباب
قد طال بُعدي عنهمو وغيابي
ترك القواصدُ والصنائعُ بابي
منعوا طعامي عنهمو وشرابي
والطاعمون بها وكيف رحابي؟

شمس:

مولاي طبّ نفساً فبرك لم يزل
يجري وخيرك في يد الطلاب

علي بك:

والناسُ شمسُ؟

شمس:

مع الأمير قلوبهم لكن سيوفهم مع الكذاب
الغزُ والأمراء حول ركابه

الفصل الثاني

علي بك:

وكذاك كانوا أمسٍ حول ركابي
والأزهر المعمور؟

شمس:

صادَ محمدٌ فيه الشيوخَ وعاد بالطلاب

علي بك:

والشعبُ؟

شمس:

سألِ يا أميرُ كعهده قد مالَ عن بابٍ وقام ببابٍ
والتركُ قد نصبوه بعدك هرَّةً يتصيِّدون بظفرها والناب

علي بك:

والقصرُ كيف القصرُ كيف صديقتي وشريكتي في شدتي ومُصابي؟
أرأيتِ آمالاً وكيف وجدتها؟

شمس:

لم نفترق مولاي

علي بك:

منذ زهابي؟

علي بك الكبير

شمس:

عزمت علينا أن نقيم بقصرها وتعطفت وحنّت على الأتراب

علي بك:

فوجدتها يا شمس

شمس:

خَيْرَ عَقِيلَةٍ وَأَجَلَ رَبَّةٍ مِنْزَلٍ وَحِجَابِ
مَلَأَتْ مَكَانَكَ عِزَّةً وَمَهَابَةً وَكَسَتْ حَمَاكَ جَلَالََةَ الْمِحْرَابِ
سَهَرْتَ عَلَيَّ ذِكْرِي الْأَمِيرَ وَعَهْدَهُ سَهَّرَ اللَّبَابَةَ عَلَيَّ حَرِيمَ الْغَابِ
لَوْ كُنْتُ أَمْسٍ تَرَى رَأْيَتَ أَبِيئَةٍ غَضِبِي مَحَامِيَةً عَنِ الْأَحْسَابِ

علي بك:

غَضْبِي؟ وَمَمَّ وَمَا جَرَى مَا رَاعَهَا؟

شمس:

من سافل مُتَهافت دَبَّابِ

علي بك:

ما ذاك شمس من الوقاح من الذي نَقَلَ الْخُطَى بِمَنَازِلِ الْغِيَابِ

شمس (لنفسها):

رَبَّاهُ مَاذَا قُلْتُ لَمْ خَبَّرْتُهُ

الفصل الثاني

علي بك:

قولي أجيبني؟

شمس (لنفسها):

ربَّ كيفَ جوابي

(شمس لعلي بك)

ذنبٌ فلا تجعله شغلك سيدي إن القذارة شيمةُ الأذنان

علي بك:

من ذاك شمسُ؟

شمس:

مراد

علي بك:

ويح له ولي ويحي من الأتباع والأصحاب
أمرادُ يصنعُ ذاكَ ماذا غرَّه بخزانتني ما غرَّه بثيابي
والزوجُ شمسُ؟

شمس:

استعصمت في دينها ورمت بزائرها وراء البابِ

علي بك الكبير

علي بك (لنفسه):

يا نفسُ قد خان مَنْ قَلَّدته ثِقَّتِي وكان حولي لواءَ الصَّحْبِ والآلِ
هذا أبو الذهب استولى على شِيعِي وحازَ دونيَ جاهي واحتوى مالي
واليوم هذا مرادُ نال من شرفي ما لا يمر لأعدائي على بال

(علي بك لشمس)

تعالِي نَجُلُ يا شمسُ في دار ضاهر تعالِي نرى الجيشَ الحليفَ تعالي
فنحنُ اقتسمنا الحصنَ ثَمَّ عيالُهُ على كثرةِ اللاجي وَثَمَّ عيالي

(يدخل حسين من باب ويدخل سعيد من باب آخر)

سعيد:

حسين هنا؟

حسين:

من أرى مَنْ سعيد؟

سعيد:

سلامٌ حُسَيْنُ

حسين:

سلامٌ سَعِيدُ

الفصل الثاني

سعيد:

أأنت هنا لم تزل يا أخي تراقبُ في الشام حالَ الطريد؟

حسين:

وكيف اقتحمتِ فناءَ العرينِ وجاوزتِ هذا الحصارَ الشديد؟

سعيد:

بمالٍ بذلتِ هنا وهناك وبالمالِ يُعطى الفتى ما يريد

حسين:

متى جئتِ من مِصرَ؟

سعيد:

هذا الصباح

حسين:

ومن كان معك؟

سعيد:

بغالُ البريد

حسين:

وماذا بمِصرَ من الحادثات؟ وهل جدُّ في أرضِ مصرٍ جديد؟

علي بك الكبير

سعيد:

حوادثٌ مِصْرَ على حالِها وأمس القريب كأمس البعيد

حسين:

وكيفَ محمد؟

سعيد:

خأفته
قبولٌ يحرقُ قلبَ الحسود
لقد نزلَ الريفُ في راحتيه
ترى الأمراءَ على بابِه
وللفقهاءِ على دارِه
كما يشتهي وعلى ما نريد
ودنيا تفيضُ وشأنُ يزيد
وحجَّ إلى قدميه الصعيد
يقومون فيه قيامَ العبيد
صباحَ مساءً زحامٌ شديد

حسين:

إذن قُضِيَ الأمرُ مصرُ لنا

سعيد:

أجل ملكنا اليومَ فيها وطيد

حسين:

وكُتبي سعيد؟ تجيء الأمير؟

علي بك الكبير

حسين:

ماذا يا سعيد قل سل

سعيد:

أين تُرى أصادفُ الآن علي؟

(يقبل علي بك)

حسين:

سعيدُ انظر التففت هذا الأميرُ مقبلا
يمشي الهوينًا ويُخـ ال الأسدَ المستمهلا

سعيد:

حُسَيْنُ ما له انحنى ما باله ترهَّلا
لأَمْشِيَنَّ نَحْوَهُ

حسين:

لا يا أخي بل ابُق

سعيد:

لا

حسين:

إياك أن تقولَ ما يغضبه أو تفعل

الفصل الثاني

فهو مهيبٌ ها هنا كالليث في جوزِ الفلا

سعيد:

لا تخشَ لا أكون إلا محسناً ومجملاً
ألم يكن أمس أم سير البلد المبجلاً

علي بك (لسعيد):

من المرء من أين من أرض مصر؟ فهذا اللباسُ لباسُ الوطن

سعيد:

أجل ملكي من رعاياكمو

علي بك:

ومن مصرَ هذا اللسانُ الحسن
وما اسمُك؟

سعيد (لنفسه):

ما همُّه اسمي؟!

(سعيد لعلي بك)

سعيد

علي بك الكبير

علي بك:

سعيد تذكرت من أنت من

سعيد (لنفسه):

تذكرني عجب كيف ذلك! ولم نجتمع مرة في الزمن
تراه بي ارتاب ظن الظنون تراه لما كلفوني فطن

علي بك:

وكيف تركت بمصر الأمور؟

سعيد:

عواصف حول مراسي السفن
وجو الأمور من الحادثات كثير الغيوم كثير الدجن

علي بك:

وكيف تركت الأمير الجديد؟

سعيد:

سقيم الولاية نكد الزمن

علي بك:

ولم يا فتى هل تولى الولي وخان من الشيعة المؤتمن

سعيد:

أجل يا أميرُ ودبَّ الخلافُ وثارتُ هنا وهناكِ الفتنُ

علي بك:

حديثك يا صاحبي لا يساغُ ولا تطمئن إليه الأذن
عساك تبالغُ فيما تقول لعلك تخلُق ما لم يكنُ
إذن لم يخُنْ عهدي الأمراءُ ولم يقلب التركُ ظهر المجنُ
ولم ينس أصحابي الفقهاءُ أياديَّ عندهم واليمنُ
ولا الشعب ملُّ الأمير القديم ولا بالأمير الجديد افتتنُ
بلغت المدى أيُّ هذا الفتى رُويدَ تأنُّ رُويدَ تأنُ
فما نحن في فلوات الحجاز ولا نحن في ربوات اليمن
ولكن على الشام فوق الطريق تمرُّ الركابُ بنا والسفنُ
وأخبارُ مصرَ وأحوالها هنا سمرُّ للقري والمدنُ

سعيد:

وكتب الثقات إلى سيدي

علي بك:

وما هي من أرسل الكتب من؟

سعيد:

كتابان من عمر الجركسي ومن حسنٍ

علي بك الكبير

علي بك:

مَنْ؟ صديقي حَسَنٌ؟
كتابان من مصر من صاحبي؟

سعيد:

أجل سيدي

علي بك:

سوف أُغلي الثمن
وأين الكتابان؟

سعيد:

خُذ سَيِّدِي خُذ النعش خذ من يَدَيَّ الكَفَنُ

(وينقض عليه بخنجره فيقبض علي بك على ساعده)

حسين (لنفسه):

أسفاه على سعيدٍ فما أدري
نحن سيَّانٍ في البلاء وأيدٍ
هو في قبضة الأميرين لِمَ لا
إلى أين ينتهي؟ أين يُمسي؟
طلبتُ رأسه ستطلبُ رأسي
أتواري أنسلُّ أنجو بنفسي

(ثم يَنسَلُ هاربًا)

علي بك:

كيف تَرَى يا معتدي لقد وقعت في يدي

الفصل الثاني

(يدخل ضاهر ويقول):

اتركه لي يا سيدي
اتركه لي فإنه في داري سطا بضيبي وسطا بجاري

علي بك:

مَن؟ ضاهر؟ بالنفس أفدي ضاهرا أكنتَ معنا يا أمير حاضرا

ضاهر:

كنت عليك يا صديقي ساهرا
والآن أذهب يا أمير بصاحبي

علي بك:

أتريدُ تذهبُ بالأثيم العادي

ضاهر:

لِمَ لا وفي داري وبين عَشيرتي شَهَرَ السلاح على أمير الوادي
دعني أحلُّ به العقابَ وخنني أَمنع حمى شرفي وحوض ودادي

سعيد (في ضراعة):

مولاي!

علي بك:

ما بك قُلْ؟

علي بك الكبير

سعيد:

بمصرَ وحقَّها لا تُلقِ رأسي في يد الجلادِ
مولاي سيفك بي أبرُّ فسُلهُ إن شئتَ فاقتلني بسيفِ بلادي

ضاهر:

حسنُ قم انهض يا بنيِّ قم انطلقِ فلقد طلبت الخير عند جواد
أنا قد وهبتك للأمير وقد عفا إن الأميرَ بكلِّ فضلِ بادي

علي بك:

ألان سعيد

سعيد:

أميري قلُّ

علي بك:

تكلم أبني نُبني مَنْ أَمْرُ
ومن بَدَل المالِ بي مُغرياً وكيف أتاكَ جوازُ السَّفَرِ
تكلم أبني

سعيد:

سيدي أعفني فلا خير في أن يديعَ الخَبِرُ

الفصل الثاني

علي بك:

قل السرَّ لا تُخَفِّهِ لا تَخَفْ فسرُّك عند صديق العُمُرُ
أليسَ محمدُ المجتري؟ قل الصدقُ تأمن به كل شرُّ

سعيد:

مرادُ أشارَ بقتلِ الأميرِ وغيرُ مرادٍ به لم يُشرُ

علي بك:

مرادُ؟

سعيد:

أجل إنه المعتدي وما أنا إلا سلاحُ شهْرُ

علي بك (ملتفتاً بضاهر العمر):

سمعتَ أخي ما يقول الغلام عدوٌّ من الأهلِ ثانٍ ظَهْرُ
إذا ما بغى الأهل والأقربونَ فكيفَ من العالمينِ الحذرُ

(يخرج الضاهر فيتغيب لحظة ثم يعود فيقول)

ضاهر:

أميري

علي بك:

من صاحبي ضاهرُ

علي بك الكبير

ضاهر:

هنالك مولاي ضيفٌ حَضَرُ

علي بك:

ومَنْ؟

ضاهر:

قائد الروس في عكَّةٍ أيدخل مولاي أم ينتظر؟

علي بك:

أميرٌ على البحر ماذا يقود؟

ضاهر:

بوارجٍ للروسٍ مثلَ الجُرُ

علي بك:

وماذا ترى أنت مرني أشْرُ

ضاهر:

تلاقيه فهو جليل الخطر

علي بك:

ألاقيه؟

ضاهر:

لِمَ لا وما في اللقاءِ إذا ما سمحتَ به من ضَرَر

(يصفق الشيخ ضاهر فيدخل القائد الروسي محاطاً برجال الشيخ ... ويخرج ضاهر وسعيد ورجال الشيخ)

القائد:

التحياتُ للأمير

علي بك:

تَحِيَّاتٌ وَأَهْلًا بِسَيِّدِي الرَّبَّانِ
أَدْنُ خُذْ مَجْلَسًا بَجَنْبِي تَفَضَّلْ

القائد:

عِشْتَ مَوْلَايَ مُوَلِّيَ الْإِحْسَانِ
نَحْنُ جَارَانُ يَا أَمِيرَ وَلَكِنْ
أَنْتَ كَاللَيْثِ رَابِضًا فِي الصَّحَارِي وَأَنَا الْحَوْتِ فِي الْعِبَابِ مَكَانِي

علي بك:

غَيْرَ أَنِّي مُقَيَّدٌ بِخَطُوبِ حَبَسْتُ هَمَّتِي وَرَدَّتْ عَنَانِي

القائد:

لا تضيِّقْ يا أميرَ ذلكَ أسطولي
سُفُنُ الْقَيْصِرِ الْعَظِيمِ قُصُورٌ
خلال البحار نور المواني
لك إن شئتَ زُيِّنَتْ وَمِغَانِ

علي بك:

أشكر القائد النبيل وإن لم يخف ما في خطابه من معان

(مستمراً):

أنا في دار ضاهر وهي داري مع أعوانه وهم أعواني
أنا في دار مسلم عربيّ مانع الدار مُكرم الضيفان
أنا في الدار أولُ منذ هاجرت إليها وصاحبُ الدار ثان

القائد:

سيّدي ألق ضاهراً وتقلّد نجدة القيصر العظيم الشان
لا ترومَنَّ بالعصا مُلكَ مصرٍ واطلب المُلْكَ بالحسام اليماني
كيف نبغي سريرَ مصرَ بشيخٍ بدوي بصارمٍ وحصان

علي بك:

بكريم من الرجال أبيّ عبقرئّي الوفاء والإحسان
فَزِنِ القولَ يا نبيلُ وأمسكْ لا تَنَلْ ذَكَرَ صاحبي بهوان

القائد:

ما أهنتُ الصديقَ مولايَ لكن قلتُ أحسنَ تخيّرِ الأعوان

علي بك:

ليست النجدةُ البوارجُ كالأعلام تطوي اللّجاج كالطوفان
ليستِ النجدةُ الحديدُ ولا النار بأيدي المشاة والفرسان
ليستِ النجدةُ اصطفافُ العوالي والتفافُ العُروش والتيجان

علي بك:

نمضي فنفتح مصرًا ثم ندخلها
غداً أحلُّ بأعدائي العقاب على
أمنيَّة الدهر تأتي لي وتسعى لي
ما استمرءوا أمس من قهري وإذلالِي

(يدخل ضاهر)

(علي بك لنفسه)

رباه ماذا يقول المسلمون غداً
يُقالُ في مشرق الدنيا ومغربها
إن خنت قومي وأعمامي وأخوالي
فعلتُ فعلةً نذل وابن أنذال

(علي بك للقائد)

أجل سَمَوْتُ لِمُلك النيل أطلبه
لا أستعين على الأهل الغريب ولا
بهمتي وبإقدامي وأفعالي
أرمي الذئبَ على غابي وأشبالي

القائد:

مولاي تلك معانٍ تحتها كرمٌ
لئسْتُ لمن طلب الدنيا بأشغالٍ

علي بك:

بُعْدًا وسُحْقًا لعلياءِ الأمور إذا
الموتُ في ثمرِ ترقى لتجنيهُ
لم ألتمسها بخُلُقِ فاضلِ عالٍ
في سُلْمٍ من ثعابينِ وأصلالِ

القائد:

إذن أميري فالأسطول منتظري
والبحر يسأل عن شأنِ الأميرالِ

علي بك (بصوت منخفض):

اذهب فما أنت دارٍ ما غدُ فعسى يُغَيِّرُ الله من حالٍ إلى حالٍ

(ينصرف القائد ويشيعه ضاهر وأتباعه)

(علي بك لنفسه)

وعقوقه أشقى بكيدٍ مرادٍ
ركني ويبكُرُ عاصفُ فيغادي
هوجَ الرياحِ مناكبُ الأطوادِ
بالضفَّتَيْنِ فتى يحوطُ الوادي
من قائلٍ هذي البلادُ بلادي
والشعبُ يسرُحُ كالقطيعِ الهادي
من فاتحِ باغٍ لآخرَ عادي
من ظلمِ أحبابٍ وكيدِ أعادي
جشعُ العداوةِ لا يَمَلُّ طرادي
وحوى بأخرى طارفي وتِلادي
ومرادُ الباغي يدوسُ وسادي
لمحمدٍ ورفاقِهِ الأوغارِ
خلعوا عليه إمارةَ الآسارِ
حيرانَ ليس لحيرتي من هادٍ
لاقي الخسارِ على الندامةِ غادٍ
والروسِ حولي يخطبونُ ودادي
سأصيبُ جندي عنده وَعَتادي
ما تلكِ خُطَّةُ حكمةِ ورشادٍ
إن الجناةَ عليَّ همُ أولادي
مهدي وكان بغيرها ميلادي

رباه ما بالي أبعدَ محمد
أنا صخرةُ الوادي يُراوِحُ عاصفُ
حَمَلْتُ كواهلي الخُطوبَ كما حَوْتُ
ولقد تركتُ ورائي الوادي وما
لم يبقَ في مصرٍ ومصرُ عزيزةُ
الذئبُ يرتعُ في الديارِ ويرتعي
نقلَ الزمانُ زمامَهُ ورمى به
ويحي فما وقفَ الرجالُ كموقفِي
فهناكَ في فسطاطِ مصرَ محمدُ
حتى حوى بيدِ مواكبِ دولتي
ما لي محمدُ الأثيمُ يكيدُ لي
عجبُ العجائبِ مصرُ صارت ضيعةُ
ذئبُ أتى الأتراكُ في الوادي به
وبقيتُ في أرضِ الشَّامِ مُشَرِّدًا
قد نمتُ عن حقي وتاركُ حقِّه
ما لي قعدتُ وتركيا مقهورةُ
أسطولهم بيدي وقائدهم معي
لا يا عليُّ رُويدَ في الغضبِ اتندُ
ماذا جنتُ مصرَ عليَّ وأهلها
ما ضرَّ مصرَ وضررتني إن لم تكنُ

علي بك الكبير

بلدُ رعاني في الصبا وأحلّني
ودخلته عبداً كيوسفَ مُشترى
لا يا عليّ اسمع نُهاك ولا تُصخُ
لا ترمِ بالروس الشداد جماعة
من أنعم سلفتُ وبيضُ أياد
لك في الشبابِ وهيأت من ناد

شمس:

أميري

علي بك:

شمسُ سمعتِ النجى؟

شمس:

أجل سيدي وعلمتُ الحَبْرُ

علي بك:

فماذا ترى؟

شمس:

أرى الخطبَ جلاً
وما زدتُ علماً بحلم الأمير
وأنتَ عليه جليلُ الصَّبْرُ
ولا خُلِقه الأريحي العِطْرُ
وبالله بالأقربين انتصرُ
دع الروسَ لا تنتصرُ بالغريب

الفصل الثاني

علي بك:

وأين همو شمس؟

شمس:

هم في يديك وتحت لوائك مُر قل أشر
أصخ لساجاياك فالخير فيك

علي بك:

وليس يُقابِلُ إلا بشرُ
أبو الذهب الغرُّ التركِ لادُ
وفي مصر في غديها ما افتكُرُ
وكم قد غزاها على رايتي
وكم من سلاحٍ عليهم شَهْرُ
وكننا خَطَطْنَا انتشال البلادِ
وإنقاذها من عُنُو التَّترِ
وأن نستقل بسطانها
ونُنهضها في النواحي الأخرُ

شمس:

تركت ورائي ما تبتغي من العون والمدد المنتظر

علي بك:

جموع؟

شمس:

هناك على الصالحية
جمعُ كسرِبِ الجرادِ انتشرُ
وينتظرون ركاب الأمير
كمثلِ انتظارِ النباتِ المَطَرِ

(يعود ضاهر)

ضاهر:

ضاهرٌ عند ظن مولاي فيه

علي بك:

مَنْ؟ صديقي أخي حليفي ضاهر؟

ضاهر:

قد سمعت الذي جرى ولمست
عزوتي سيدي ونفسي ومالي
نحنُ إلفانٍ يا أميري على الأرض
ومعي مدفعان من سلب الترك
والمواشي كثيرةٌ في ضياعي
كلُّ شيءٍ كما تُحبُّ مهياً
الفضل والنبل والسجايا الطواهر
في الذي شئت ما الذي أنت أمر
وإلفان في مُتون الضوامرُ
وتلُّ من السيوف البواتر
والطريقُ الطويلُ بالخير عامر
فمتى الظعنُ سيدي مُرّ نساfer

علي بك:

غداً الظعنُ يا أخي قُمْ تَاهِبُ
إِنما الغنمُ للخفيف المبادر
ضاهرُ اسمع هناك في مصرَ

ضاهر:

ماذا؟

علي بك:

أهبةٌ يا أخي وجيشُ مناصر
من صحابي المُشردينَ وأتباعي
ومن كل حافظ العهد ذاكر

الفصل الثاني

إن جمعنا إليه جيشك سرنا وأخذنا محمداً أخذَ قادر
وانتزعنا البلادَ من قبضةِ الترك ومن كل فاسق الحكم سادر
آن أن نُنقذ البلادَ فماذا أنت راءٍ

ضاهر:

هلمَّ والجيشُ حاضر

علي بك:

حاضرٌ؟ فلنسرُ إذن

ضاهر:

بعيون الله في حفظه بأيمن طائرُ

(ثم يصيح):

عَرَبَ الشامِ تلكَ مصرُ دعتكم

جماعة من عرب الشام:

ألفَ لبيكِ مصرُ لبيكِ ضاهر

الفصل الثالث

(الوقت بعد الغروب، في سرادق محمد بك أبو الذهب بالصالحية، حيث دارت رحى الحرب بينه وبين علي بك. في الوجه محمد بك راقد على سرير وعثمان الجاسوس التركي يكبس قدميه. في أحد جوانب السرادق جماعة من البكوات يتحدثون ويلعبون الشطرنج. في الجانب الآخر خادمان مصريان مشغولان بتنظيف ملابس محمد بك أبو الذهب ...)

أحد الخادمين (للآخر):

ولدي زعزوع أنصت	أصغ للحق المبين
نحن في أيام جهل	وبلاء وجنون
نحن فوضى من مراح الش	ة للخدر المصون
في زبون من حروب	الأهل في إثر زبون
ورءوس في الصواني	نزعنت منها العيون
وعزيز هان ما كان	ببال أن يهون
أصبح الناس على الـ	وادي بلا دنيا ودين
حركات كالسكون	وحياة كالمنون
وقف الحاكم من	كل رخيص وثمان
مثل ما قد وقف الـ	ائن من مال المدين
وشريك الشعب في	كديده والجبين

علي بك الكبير

وشريكًا في الأواني وشريكًا في الصحون

الأخر:

يا شيخُ هذا بلدٌ أحمالُهُ بلا عدد
من سُلْفٍ وكُلْفٍ ومن نكوسٍ وفرد
وكلُّ يومٍ مطرٌ من الضرائبِ الجُدُد
وتلِدُ الفِرْدَةُ ما لا يعلمون من ولد
على الحمارِ فِرْدَةٌ وفِرْدَةٌ على الوتد
وفردة على اللجام وهو حبل من مسد
وفردة على برادع الحصير واللبد

(مستمراً):

يا شيخ لي نعمةً غرامي وكل همي كانا إليها

الأول:

ما صنعت ما الذي دهاها

الثاني:

قد ضربوا فردة عليها فضقتُ ذرعًا بذاك حتى
ذبحتُ شاتي وطفلتها

الأول:

ما قد دهاك دهاني ومثل شأنك شاني
أتيت طنطا لشغلي وكان تحتي أتاني

الفصل الثالث

خرجتُ منها مع الليل مُسبلاً طيلساني
فمرَّ فوق طريقي من لا أرى ويرانى
أغاً عليه سلاح في صورة الشيطان
فصاح بي قف ترَجَّل لقد سرقت أتانى

الثاني:

وما جرى؟

الأول:

قلت له بل الأتان لي أنا
فقال ذاك أمس إلا أنها اليوم لنا
بل هي لي وحدي فدع ها لي وامض من هنا
ثم رمانى بيد كأنها كف النمر
ثم اعتلى ظهر الأتان

الثاني:

ثم؟

الأول:

لكن لم يسر حتى سمعت هدَّة
وصرخةً من النَّهْر وأبصرت عيني وراء
الليل آية القَدْر حمارتي تجبرت
مثل تجبُّر البشر فأغرقت راكبها
وغرقت على الأثر

علي بك الكبير

مميّش بك (لعثمان بك في تهكم واستهزاء):

لقد رأيناك ضحَى اليـ موم تَجِي من الجبل
فوق حصان كالـ غزال رِقَّةً وكالحَمَلُ

عثمان بك (وفي غضب):

كذبتمو قد كان تحـ تي سيد الخيل (بطل)
لا حَمَلٌ ولا غزال هـ و لكن الوعل
كالأفْعوان في الشعـ اب والشهاب في القُلُّ

مميّش بك:

وقد تمايلت على السر ج تمايلَ التَّمْلُ
وقد تدلَّى بطنك الضخْمُ عليه وانسدل
كأنك المحمل والحصـ ان تحتك الجمل

عثمان بك:

مميّش عبت حصاني ولم تدع لي اعتبارا
هذا جزاؤك عندي خذ هاك مني عيارا

(ويطلق عليه غدارته)

محمد بك:

عثمان

عثمان بك:

ملكي

محمد بك:

لا تُرْعُ قد كان من حزب علي
كفيتنيه فتولَّ اليوم ما كان يلي
هيو احملوا جثته هيو اذهبوا بالرجل

(يخرج به البكوات والخدم)

(عثمان الجاسوس وهو يكبس قدم محمد بك)

عثمان (لنفسه):

خدمته والله ما خدمتُ إلا دُولتي
كبَّسته والله ما كبَّست إلا حاجتي
خادمُ تركيا أنا ما أنا خادم الغبي
كم من حرير في نواحي صُدرتي وذهب
هاتيك ألقابي وتلـ ك شُرطي ورتبي
مما بلغتُ في رضا اللـ ه وطاعة النبي
وتحت أعلام السلا طين السيوف القُضب
أقمتُ في مصر سنيـ ن أنزوي وأختبي
وأنا حينًا ماهنُ وأنت أحيانًا صبي
أرمي أحمًا على أخ وأصدم ابنًا بأب
لم آل حكم العُزُّ جُهد الباحث المنقَّب

(يفيق محمد بك ويتمطى ويتأهب)

محمد بك:

ماذا يقولون عنا في مصر يا عثمان؟

عثمان:

عهد الأمير رخاءً
فمصرُ راضٍ بنوها
يقول إن أميرِي
وغبطةٌ وأمان
والناسُ فيها لسانُ
يحبّه السلطان

محمد بك:

والأمراءُ أمنهم
مخالفُ غضبانُ؟

عثمان:

الأمراءُ جميعاً
لا يذكرون عليّاً
فما لغيرك صيتُ
ببابكم أعوان
وبيته مذ بانوا
ولا لغيرك شان

محمد بك:

صدقت هم حيث كـ ان الجديد في مصر كانوا

(يقبل جندي ويقول لمحمد بك):

مولاي عندي أخبارُ سوءٍ وقَفْنُ في فيٍّ فهو حائر

الفصل الثالث

محمد بك:

أنت رسولٌ؟

الجندي:

أجل

محمد بك:

فـخـبـر
الرُّسُلُ لا يُسألُونَ عما
بيِّنُ إلامَ القتالِ صائرٌ؟
بعد المناعي ولا البشائر

الجندي:

مولاي

محمد بك:

ماذا؟ عَجِّلْ. تكلم

الجندي:

دارت على جيشنا الدوائر

محمد بك:

وما الذي كان من عليّ؟

علي بك الكبير

الجندي:

أُعِينَ فِي أَمْرِهِ بِضَاهِرُ

محمد بك:

وفاز؟

الجندي:

فِي أَوَّلِ التَّلَاقِي بِقُوَّةِ الشَّامِ وَالْعِشَائِرِ

محمد بك:

إِذْنِ هَلَكْنَا؟

جندي آخر (وهو داخل):

لَا يَا أَمِيرِي بَلْ أَنْتَ نَاجٍ بَلْ أَنْتَ ظَافِرٌ

محمد بك:

من قال ذا؟

الجندي:

شاهدا عيان

محمد بك:

من أين؟ ممَّن؟

الجندي:

من العساكر

(يدخل الجنديان ويتبعهما خدم يحملون صينية كبيرة)

الجندي:

ها هما

محمد بك:

مرحبًا

الجنديان:

عوافٍ حياةً

محمد بك:

أوجزا

الجنديان:

نحنُ موجزان المقالا
هُزِمَ الجيْشُ صُبْحَ أمسٍ ولكنْ عادَ نجمُ العدو ظهراً فمالا
فحملنا عليه حملةً صدقٍ وحوينا الرجال والأموالا

محمد بك (لأحدهما):

زِدْ، أَيْنُ

علي بك الكبير

الجندي:

ما قَصَّرَ الجِيشانِ ضَرْبًا وِطْعانا

(يقبل البكوات)

محمد بك (الجندي):

وأبو مَيْلَّة؟^١

الجندي:

غَشَّيْ ساحةَ الحربِ دُخانا

أحد البكوات:

قد رأينا من هنا ظُلمته واللمعانا
وسمعنا من هنا رَجَّتَه والدَّورانا

محمد بك:

اختراعي مدفعي قد ظهر اليوم وبانا
وَمُـــــــرادٌ؟

الجندي:

كان كالليث لحاظًا وجنانا
شد بالزارة والوثبة في الحرب قوانا

^١ مدفع من صنع واختراع محمد بك أبو الذهب.

الفصل الثالث

كلما انهار حِصَانٌ تحته احتلَّ حِصَانَا

محمد بك:

ثم؟

الجندي:

رمى بنفسه على عليٍّ في الرحى

محمد بك:

ثم؟

الجندي:

تجالدا فلم يدعه حتى جُرِحَا

محمد بك:

أين هو الآن؟

الجندي:

على آثارنا على سرير ليِّنٍ مُظَلَّل
يخدمهاالنَّاسُ وَيُعْنَوْنَ بِهِ كالولد الممهَّد المدلَّل

محمد بك (همسًا لعثمان):

عثمانُ هذا علوي لا تنسَ رأسه غدًا

(محمد بك للجندي):

تلك رعوس شيعته، ومن سعى لنصرته، من بيته وعزوته

(يأخذ الجيش في العودة من ميدان القتال في أزياء شتى بين الضجيج المتواصل من الطبل والزمر، وتقبل طائفة طائفة فيمر بخيمة محمد بك، وكلما طافت به جماعة خرج إليهم البيك فينثر عليهم الذهب وهو يقول)

محمد بك:

خذوا خذوا خذوا خذوا إني أنا أبو الدهبِ
خذوا املاؤا أيديكم من الشعاع المنسكبِ

الجماعة:

سلمت يا أبا الذهب وعشت تُعطي وتهب
أخجل جودك السُّحْبُ

الجيش والنظارة (يهتفون معاً):

بني الوادي قفوا حيوا اللواء وغطوا الأرض وردًا والسماء
رَجَوْتُمْ من وراء الحرب نصرًا وهذا النصرُ بينَ يديه جاءَ
هو الرمزُ المقدسُ فاتبعوه وموتوا في القتالِ له فداءً
عليه ضجَّةُ الفرح ابتهاجًا بطلعته الحبيبة واحتفاءً
كأن وراءه هيكله خيالًا من الشهداء والجرحى تراءى
على قدم حيوا العَلَمُ
حيوا الشعار حيوا الفخار
رمز الوطن مجد الديار

أحد القواد القادمين:

سيدي فُزت بالمُنَى هو ذا الجيش قد رَجَعُ
وهَبَ الله نصرَهُ للمريدين والتَّبَعُ
وعليّ وجيشه شبعتَ منهما الضبُعُ
ليس يُدرى أمات أم في يد الجُند قد وقع

محمد بك:

أحل أرى الجيش اقتربَ نشوانَ بالغ الأربُ
يرسل رنةً الطَّربُ

فريق من الجند (يتغنون من خارج الخيمة):

سلمتَ يا أبا الذهبِ وعشتَ تُعطى وتهبُ
أخجل جودك السُّحبُ

جماعة أخرى من الجنود والنظارة (يهتفون):

يا عسكر النيل بالسلامه يا عسكر النيل بالسلامه
ظفرت بالنصر كل حين وفُزت بالعرز والكرامه
في يوم سلم وفي قتال وفي رحيل وفي إقامه
فما شهدت القتال إلا رفعت للضفتين هامه
أبليتُموا قادة وجندا بورك في الجند والزعامه
قد شيد الله مجد مصر والجيش من مجدها الدعامه

جماعة آخرون:

هلم خيل الوطن تخايلي في الرسن
اليوم أنت مطلقه حممه وطقطقه

علي بك الكبير

محمد بك أبو الذهب (وينثر الذهب):

خذوا خذوا خذوا خذوا إني أنا أبو الذهب
خذوا املأوا أيديكم من الشعاع المنسكب

الجماعة:

سلمت يا أبا الذهب وعشت تعطي وتهب
أخجل جودك السحب

أحد البكوات:

ملكي

محمد بك:

ما جرى؟

الأول:

تأمّل أسيرٌ سيدي من عواهل الشام كهلٌ

محمد بك:

من يسوقُ الرجالُ ضاهرُ الشاميُّ عانٍ عليه قيدٌ وغلٌ

(يدخل ضاهر يحوطه الجند)

ويحهم ذاك ضاهرٌ ما لجندي قد غووا ما لقادة الجند ضلوا
كثر الجندُ في الحديد عليه وهو كالليث في الحديد يُدُلُّ

الفصل الثالث

(محمد بك، ويتقدم منه):

ما أرى ضاهرٌ يُساقُ أسيرًا أنتَ من ذاكِ يا أميرَ أجُلِّ
أيها الجندُ ضاهرٌ صار لي ضيفًا فخلُّوا سبيلَ ضيفي خلُّوا
من فلسطينَ أنتَ ضاهرٌ أم من أرز لبنانَ أم لك الشامُ أصلُ؟

ضاهر:

كل هذا هناك مولاي أصل واحدٌ يجمعُ الرجالَ وفصلُ
عربٌ كلنا ومنطقنا الفصحى وآبائونا نزارٌ وذُهلُ

محمد بك (للجند):

ما صنعتُم بسيفه؟

أحد الجند:

هو عندي

محمد بك:

هاته فهو محرّمٌ لا يحلُّ

(محمد بك ويناوله السيف)

خذ تقلدٌ والله ليس لهذا الظفر إلا يدَ الهُصُورِ محلُّ
أنتِ خلٌّ للبائسينَ وفي وهو أيضًا لهم صديقٌ وخلُّ

ضاهر:

لستُ أنسى لسيدي الفضلَ ما عشتُ

محمد بك:

وهل في رعاية الحق فضلُ
قد رددنا على السموأل سيفاً كان دونَ الوفاء أمسِ يُسلُّ

ضاهر:

كيف أمشي في الشام أم في سواها ألبسُ العزَّ حين جارى يذلُّ
ذاك سيفي فأينَ إكرامُ ضيفي ما لي اليوم غير ضيفي شغلُّ

محمد بك:

من! علي؟

ضاهر:

أجل ومن كعلي ملك ما له على الأرض مثلُ
سيدي قيلَ في خلالك برُّ ليس يُحصَى وفي سجاياك نبلُ
قد تركت الأمير في شدة الـ كرب وغادرتُ جمعنا وهو فلُّ
ما الذي أنتَ صانعٌ بعلي؟

محمد بك:

غايةُ الخيرِ فهو للخيرِ أهلُ
هو في قصره كأمس المفدى بينَ أولاده الأميرُ الأجلُّ

ضاهر:

أسروني ولو بقيت طليقاً

محمد بك:

ما الذي كنت صانعاً؟

ضاهر:

كنت تـبـلـو
كيف أبني اللواء حول حليفي وأرُمُ الصفوفَ إذ تضمحلُّ

محمد بك:

بل ستبقى بمصر ضيفاً علينا مصرُ دارٌ للأكرمينَ وأهلُ

ضاهر:

ورجالي

محمد بك:

سيلحقونك فيها لك عندي وللعشيرة نُزُلُ

ضاهر (لنفسه):

ذلك الغدرُ والمماليك فيهم من قديم الزمان غدرٌ وحتلُّ

(يشير محمد بك إلى جماعة من رجاله فيخرجون بضاهر)

(يقبل مراد في جماعة من الجند)

علي بك الكبير

محمد بك:

ما أرى؟ ما ترون؟

أحد الحاضرين:

هذا مرادُ

محمد بك:

هو ذا جرٌّ ذيلُهُ إِدْلالاً

مراد بك:

التحياتُ للأمير

محمد بك:

مرادُ ————— مرحباً مرحباً تعالَ تعالاً

مراد بك:

ألف بشرى مولاي

محمد بك:

أهلاً وسهلاً أُدُنْ منِّي أعانق الرثبَلاً

(يعانقه)

علي بك الكبير

مراد بك:

يا لعجائب الحياة ما أرى هذا اليسرجي

مصطفى اليسرجي:

اليسرجي مصطفى

مراد بك:

أنت الذي برزت لي من ساعة

مصطفى:

أجل لألقى من حُسامك الردى

مراد بك:

لقد جُرحت من يدي لم لم تمت

مصطفى:

إنني أحسُّ أجلي الآن دنا
مولاي لا تقطع حديثي وانتظرُ عجائبُ الحياة فوق ما ترى

مراد بك:

وهل عجائبُ الحياة غير ما يجري هنا الآن؟

مصطفى:

أجل وما جرى

مراد بك:

فمُتْ إذن وأعفني

مصطفى:

لا بل أقم واسمع فقد يُنجيك ما أروي هنا

مراد بك:

سر؟

مصطفى:

أجل وقد ينالك الأذى من أن أموت أنا والسرُّ معاً

مراد بك:

إذن فقم إبق تأخر ساعة قل ما لديك ثم مُت كيف تشا

مصطفى:

أهكذا ربك جافٍ حَشَنُ من الممالك مُضِيعُ الوفا
ليتك عشتَ راعياً في وطن مُهدبِ الفتية صالح النَّشَا

علي بك الكبير

مراد بك:

دَع الفضولَ واحترس يا مصطفى أنت غيبٌ لست تدري مَنْ أنا
أما كفاك أميس أن أخرتني أنا وقدمت عليًّا فاشترى

مصطفى:

أنت تُحبُّها؟

مراد بك:

أجل

مصطفى:

أنت

مراد بك:

أجل

مصطفى:

حَـذَارِ يا مرادُ مِنْ هذا الهوى

مراد بك (مضطربًا):

ولم؟ وما آمالُ؟ أهَي من دمي؟ أم هي لحمي؟

الفصل الثالث

مصطفى:

هي والله هُما

مراد بك:

أختي؟

مصطفى:

أجل أختك

مراد بك:

يا لي ولها من هول ما كنتُ عليه مُقدما

مصطفى:

مراد أنت في صعيدٍ واحدٍ ضربت بالسيف المُربِّي والأبأ

مراد بك:

ومن أبوها وأبي أنت؟

مصطفى:

أجـل أنا الذي باع الفتاة والفتى
أنا الشقيُّ بائعُ ابنيه

مصطفى:

مراد! لا يقوى فمي

(ويموت مصطفى)

مراد بك:

ماتَ انتَهَى رَبُّ ارحمِ

(مراد بك يلقي عليه عباءته ويرجع باكياً)

(تدخل آمال فيلمحها مراد بك ويقول لنفسه):

أجلُ أجلُ هيا آمالُ أختيا
تلك الضواريا لأكفينها

آمال (لنفسها):

ما له مضطرباً يرمقني بالرضا حيناً وحيناً بالغضب
ما به؟

مراد بك:

آمال

آمال:

مهلاً سيدي ادعني حين تنادي باللقب

مراد بك:

احملي الجثة يا أختُ معي هي نَحْبُهَا هَلْمِي نَحْبُ

آمال (بعد أن تقف أمام الجثة وتتأملها):

حَنَانِيكَ رَبِّي أَبِي رَمَةٌ
أبي كيف صرت وراء التراب
أبي ما لأذنك قد أبطأت
وما بال حظي منك الصدود
وأين يدُ سمحة طالما
أحقُّ أبي دهمتك المنون
ذهبت كما ذهب الأولون
مــــراد

يَمُرُّ عَلَيْهَا التَّرَابُ الْخَشَنُ
إلى جسد باليلي مرتَهَنُ
وكنت إليّ سريع الأذن
وكان نصيبي اللقاء الحسن
مسحت بها عبراتي الهتن
أجل وجرت فيك كبرى السنن
قتيل الحياة جريح الزمن
أخــــي

مراد بك:

أختُ لا تحزني فماذا يرُدُّ البكا والحزن

آمال:

أحقُّ أخي أنه قد قضى
قضى في معارك لم يجنّها

وأنا فقدنا الذرا والركن
غريب التراب غريب الوطن

(ثم مخاطبة الجثة):

تمنيت أني أقيك الردى
وأجعل غُسلك ماء الشئون
وأختطُّ بين حنايا الضلوع

بنفسي ومن يدفع الموت من
وأصنع من هُدب عيني الكفن
صوائناً ولحدًا لهذا البدن

علي بك الكبير

جُعِلْتُ الفدا لك مما دهاك وممن رماك وممن طعن
وليت جراحك بي يا أبي

مراد بك:

رويدك أخت أقلي الشجن
ولا تكثري حسرات الصديق ولا تشمتي الكاشح المضطغن

آمال:

وكيف مراد وهذا أبوك لقي في التراب كأن لم يكن

(يخرج مراد بك وآمال بالجثة)

(يوئى بعلي بك مجروحاً محمولاً على سرير من جريد فيوضع في ناحية من
الساحة)

علي بك (لنفسه):

وطوى الزمان وريبه أعلامي
وأروم والأيام دون مرامي
لم يكفني فطلبت ملك الشام
حتى اقتنيت عداوة الأتوام
حتى تجرأ خادمي وغلامي
وكذاك ركن بناية الأوهام
حيناً وحام على شباة حسامي
وطئت جواهر عرشها أقدامي
حتى انتبهت فلم أجد أحلامي
جعلت سرير القش كل خطامي
واليوم لا خلفي ولا قدامي

ويحي تفرق عسكري وخيامي
أحتال والأحداث تُفسد حيلتي
لما طوت ملك الكنانة راحتي
صيرت حرب الترك وجه سياستي
وكفرت إحسان الذين خدمتهم
في الصالحية مال صرخ مطامعي
النصر غاب وكان طاف برايتي
وحملت في سرر الجريد ببلدة
قد عشت بالدنيا العريضة حالماً
دنيا أردت من العروش خطامها
بالأمس جللت التراب مواكبي

الفصل الثالث

اليومَ أرسفُ في دمي وجراحتي وغداً أجرُ منيَّتي وحمامي
أنا قد جعلتُ الغرَّ مهبطَ نعمتي وخصَّصْتهم بمنازل الإكرام
فلدغْتُ من صِلينٍ منهم عقنِي هذا وذاك أضاعَ حقَّ ذمامي
وتتابعَ الأمراءُ في أثريهما يستمرئونَ عداوتي وخصامي

(يقبل محمد بك أبو الذهب في حاشيته)

محمد بك أبو الذهب:

يا ويحَ لي ماذا جرى هذا أبي وسيدي
سيعلمُ المُغرى به كيف عقابي في غدِ

(ويتظاهر بالأسف ويتقدم لملاقاة الجريح)

يا أسفا على (علي)! يا أسفا على أبي وسيدي وموئلي!
يا أسفا على الكريم المفضل

أحد البكوات (همساً):

ماذا يقول؟ سيدهُ! شلَّت يده شلَّت يده

علي بك (لمحمد بك):

محمد اسمعُ مراد غادرُ
اقضِ عليه وأنتَ قادرُ

محمد بك:

لا بل تعيش سيدي وبيدك تقتله
سيدي انس اليوم وافكر في غد

علي بك الكبير

علي بك:

ليس للمغلوب غيرَ الذل غد

محمد بك:

بل غداً تبرأ من جرحك

علي بك:

قلما قام من الجرح الأسد

لا

أحد الحاضرين (همساً لآخر):

الذئبُ جربَ في المرَبِّي ظُفْرَه فأصابه
لا تحوِ دارُك أرقماً حتى تحطّم نابه

علي بك (لمحمد بك):

محمد اطلب لي قليل ماءٍ إني أحس حرقه الضمائم

محمد بك:

مولاي لا باس فداؤك الناس

(محمد بك لعثمان ويناوله حقاً)

عثمانُ جئُ بالشراب أغثهُ بالعُنابِ

علي بك:

عجلْ وأطفئْ لهيبي أسرع وخففْ عذابي

(يذهب عثمان ثم يعود بالماء)

(علي بك لمحمد بك ويتأمل الكأس)

أغريتَ في الصبح بي عقورًا ما أنا من جرحه بصاح
والآن أرسلتَ كلبَ سوءٍ يدُسُّ لي السُّمَّ في القراح
وهكذا تجرحُ الأفاعي وتُفرغُ السُّمَّ في الجراح

(علي بك لعثمان)

عثمانُ ما دَسَّستَ لي في الكاس عُشبَ القفار أم تُزَابَ الماس
السم أحيانًا طبيبُ آس

(ويشرب)

محمد بك (لعلي بك):

أبي وأميري كفى سوء ظنٍّ

علي بك:

محمد نلَّ كلَّ ما شئتَ منِّي
وما لي ألومك والسُّمُّ فنِّي
أخذت الخيانة والغدر عني

(محمد بك يبتعد في حاشيته فيختلط بالأمراء الآخرين)

علي بك الكبير

(علي بك وقد لمح آمال ومراد بك قادمين)

أرى ويح لي ماذا أرى؟
مرادٌ وآمالٌ. عدوي وزوجتي
يُعذّبني يا رب أني أراهما
إذن هي تهوى النذل وهو يحبها
إذن فمرادٌ لم يثب بي وحده
ولكن أعارته الخبيثة نابها
أجل هدمًا عشي معًا وتعاونًا

توالّت جراحاتي وطال عذابي
فيا زمني هل من جديد مصاب؟!
قد اختلطا من جيئة وذهاب
إذن ليس ما خبّرتُه بكذاب
ولم يقتحم ستري ويسطُ ببابي
وما في ذراها من نقيع لعاب
على ثلم محرابي وهتك حجابي

آمال (لنفسها):

إلهي أعن زوجي وبُلّ جراحه
رمانني بعين قلبت عن كراهة
تُرى ظنٌ بي سوءًا تُرى ارتاب في أخي
له العذر في حال أضاعت صوابه

فما باله مستوفزًا لعتابي
وعن نظرات كالشُّرار غضاب
ففكر في جُرمي وكيف عقابي
فإني أنا الأخرى أضعت صوابي

(وتتقدم من علي بك):

سيدي مولاي

علي بك:

من؟ أنت؟

آمال:

أجل

علي بك:

أَعزَّبِي الرِوَايَاتُ إِذْنٌ لَمْ تَكْذِبِ
عَنِّي خَلِّينِي اعزُّبِي

آمال:

ما أذاعوا سيدي ما نقلوا؟

علي بك:

خبروني امرأتي تعبتُ بي

آمال:

مع مَنْ أعبتُ! معَ هذا الفتى؟ معَ شقيقي وابنِ أمي وأبي

علي بك (لمراد بك):

مراد

مراد بك:

مولاي

علي بك:

اعزُّبِ لا بل تعالَ اقتربِ

مراد بك:

أبي

علي بك:

سؤالٌ يا فتى أصغِ إليَّ أجب
مرادُ كنتَ لا ترى غيري فما غرَكَ بي
أنتَ الذي اشتريتهُ بفضتي وذهبي
ولم أقصِّر معه عن واجب المؤدِّب

مراد بك:

مولايَ خلّني إلى ضميري المّعذب
أعفُ فأنتَ أهلُه هبْ لي جرائمِي هب

علي بك:

مرادُ

مراد بك:

مُرُ

علي بك:

أوصيكَ خيرًا بالملاك الطيّبِ
أما تراها أصبَحْتُ من غير زوجٍ وأبِ

(ثم مستمرًا):

مرادُ بنيِّ أصخُ أصغِ لي تعلّم من الذاهبين استتفد

مراد بك:

تكلّم أبي هات قل سيدي وبين كدأبك سُبَل الرَشَد

علي بك:

بناء الممالك واهي الأساس
وضيعتهم بعد طول الإباء
إذا فَسَدَ الخُلُقُ في أمة
وصاحبُكم نَهَبَتْ نَفْسُهُ
يحبُّ النساءَ ويهوى الطعام
بفضل التعاونِ سُدنا البلاد
إذا قام بانٍ إلى غاية
وأولعَ بالعُصبةِ العاملينَ
فلم يَرَ واحدُهم همّةً
يمينًا مرادُ لما في البلاد
يَلُمُّ المماليكَ من فرقة
ويُرجعُ للطاعةِ المارقينَ
فثبُّ بالغبيةِ غداً ثبُّ به

(ويغنى عليه)

مراد بك:

ويح للمجد حلّ بالماجد المـ وت وأخنى على الكريم الحمامُ
رحمته له مضى وتولّى واستتردت جمالها الأيامُ

آمال:

مات! لا يا مرادُ قل هو حيٌّ
فرحى يا عليُّ ما أنتَ راءٍ
فرحى مثل يوم نحرٍ عليه
ضحت الحادثات فيه بكبش
قد أُصبنا من العيون كلانا
أدركتني وأدركتك السهام
قل أخي تلك ضجعةٌ ومنامٌ
مأتمٌ بين ناظريكٍ يقامُ
من دم البرِّ لمحةً وابتسام
فُجِعَ الشرقُ فيه والإسلام
أدركتني وأدركتك السهام

أحد البكوات (لآخر):

أرأيتم أسمعتم جرأةً
ما له استهتر في مواقفه
انظروا فهو عليها مُقبلٌ
تركا المقتولَ لم يكثرثا
أترى يطمع أن يخلفه
وهي هل تطلبُ زوجًا بدلَه
تلك يا ويحَ مراد ويحَ له
ومضى يفعلُ فعلَ السَّفلةِ
وهي بالسمعِ إليه مُقبله
لدم من حوله قد جَلَّله
وهي هل تطلبُ زوجًا بدلَه

آمال (وتلتفت خوفًا):

مراد أخي

مراد بك:

لييك آمال

آمال:

ما لنا رمتنا عيونُ القوم من كلِّ جانب
وإنني لثكلى مرَّتَيْن وما دَرَوَا
تولَّى أبي عنِّي ولم يبق صاحبي

علي بك الكبير

آمال (لمراد بك):

ترفق أخي سامحه

البك (لنفسه):

تدعوه يا أخي إذن لم يكن فيما رواه بلاعب

مراد بك:

تعلم إذن أن الفضول وقاحة وأن عقابي عنك ليس بعازب

البك:

وأنت تعلم أن سيفي منية وهدارتي محشوة بالمعاطب

مراد بك:

وقوسك؟

البك:

قوسي ليس يخطئ سهمها

مراد بك:

ورمحك؟

البك:

مثل الأفعوان الموائب

علي بك الكبير

مراد بك:

أميري!

محمد بك:

تلك والله ريبة

مراد بك:

تفضل أميري واستمع ثم عاتب

محمد بك:

أما هذه عرس الكبير فما أتى بها ها هنا بين ازدحام المناكب

مراد بك:

بلى يا أميري وهي أختي

محمد بك:

أخته! حنانيك ربي تلك إحدى العجائب

مراد بك:

أجل سيدي أختي اجتمعنا من النوى على قدرٍ من صنعة الله غالب
ولم ندرِ قبلَ اليومَ أنّا قرابةٌ وأنا التقيُّنا في كريم المناصب

الفصل الثالث

محمد بك:

ومن قال للصنوين هذا؟

مراد بك:

أبوهما

محمد بك:

وما هو؟ مَنْ؟

مراد بك:

بعضُ التُّجَّارِ الجِوَالِبِ

محمد بك:

وَأَيْنَ فَادَعُوهُ فَأَعْلِي مَحَلَّهُ وَأَرْفَعَهُ وَابْنِيهِ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ

مراد بك:

تَعِيشُ وَتَبْقَى، مَاتَ

محمد بك:

مَاتَ أَبُوكُمْ؟

مراد بك:

أَجَلٌ. هُوَ ذَا يَدَمَى وَرَاءَ الْعَصَائِبِ

علي بك الكبير

محمد بك:

جريح؟

مراد بك:

أجل لكن قَضَى من جراحِهِ

محمد بك:

قتيلٌ؟

مراد بك:

أجل ثاوٍ وراءَ السبابِ

محمد بك:

وما تصنعانِ الآنَ؟

مراد بك:

ما أنتَ أمرٌ

محمد بك:

هنالكَ حراسي وثُمَّ ركائبِي
فخذها إلى الفُسطاطِ حتى تَجِي بها إلى قصرِها محفوفةً بالرغائبِ
وبعد غد تجري على القصرِ نعمتي ويأتيه برِّي كالغيوثِ السواكبِ

الفصل الثالث

آمال (وهي منصرفة):

وداعًا أبي!

محمد بك:

صبرًا جميلًا أميرتي ولا تفعلي فعل البواكي النوادب

آمال:

عفا الله عنه كان شيخًا مصليًا محبَّ اليتامى راغبًا في المتأوب
لقد طلب الدنيا بمصر فنالها فولَّى إلى الأخرى وجوه المطالب

